الاسلام دين الفطرة

لحضرة العلامة المفضال الأستاذ

الشيخ عبد العزيز جاويش

وعليه مقدمة بقلم

احمد حلمى

تعليقا على كتاب (الاسلام) للكونت دى كاسترى

الذى عربه سعادة احمد فتحى زغلول باشا

وكيل الحقانية

« تتضمن هذه المقدمة رأى الفيلسوفين المشهورين : السيدجمال الدين الأفغانى والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية سابقا »

الاسلام دين الفطرة

لحضرة العلامة المفضال الاستاذ

الشيخ عبد العزيز شاويش

وعليه مقدمة بقلم

احمد حلمي

تعليقا على كتاب (الاسلام) للكونت دى كاسترى
الذى عربه سعادة أحمد فتحى زغلول باشا
وكيل الحقانية

«تتضمن هذه المقدمة رأى الفيلسوفين
المشهورين: السيدجمال الدين الافغاني
والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده
مفتى الديار المصرية سابقا»

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

نظرة فى كتاب الاسلام : للكونت هنرى دى كاسترى

طلعت شمس الاسلام من شبه جزيرة العرب التى انتشرت فيها الامية وتأصلت بين أهليها عنجهية البداوة وخشونتها فأضاءت المشرقين ونفذت الى القلوب أشعتها فملأتها من قوة العقائد السامية فتضاءلت حيالها قديمة الشرائع وحديثة النواميس فما وجد الجاحدون مناصاً من الاعتراف مرغمين بأنها ليست كشرائعهم بل تفوقها سمواً ورفعة واحكاما . وقال غلاتهم انها لسحر . وقال المؤمنون انها لتنزيل من حكيم حميد

ان الدين الاسلامى الحنيف وهو مجموعة مبادئ سامية وعقائد عالية لقوى بنفسه غنى بوضوح محجته عن دفاع الاقلام لسموه عن متناول الطعن والطاعنين ولو لم تكن للدين الاسلامى تلك المكانة الرفيعة لما بسط جناحى سلطانه على رؤوس الامم من جنوبى فرنسا فى جوف أوربا الى أقصى الشرق فى أبد من الزمان لايتجاوز قرناواحدا فطأطأت له هامات القياصرة زلة وخضوعا وعنت لهيبته وجوه الاكاسرة استكانة وخنوعا

أولئك الاكاسرة الذين سادوا مملكة فارس التى كانت على عهد دارا الاكبر احدى وعشرين ايالة وكانت احدى هذه الايالات مشتملة على مصر وسواحل البحر الاحمر وبلوخستان والسند كما حققه «فرنسيس لونرمان» المؤرخ الشهير

وليست تلك القوة التى أخضعت زهاء مائة مليون من البشر فى قرن واحد هى قوة كتائب البدو الذين لهم فضل الفتح والغزو بالاسياف والنبال وحدها بل انما هى قوة تلك الصفات الفاضلة التى اشتمل عليها ذلك الدين القيم

وان دينا هذه قوته لفى غنى عن دفاع أبلغ البلغاء. وما مطاعن الطاعنين فيه الا كالغبار يعلو الجواهر الكريمة واللآلى اليتيمة فلا يضيرها منه شىء اذ أقل الذين يدينون به شأنا يستطيع أن يزيل هذا الغبار عنها بغير عناء فتعود سيرتها الاولى من الاشراق والالتماع

***

نظرنا فى كتاب «الاسلام» الذى وضعه الكونت دى كاسترى وأخرجه للناس فى ثوب عربي سعادة أحمد فتحى زغلول باشا وكيل الحقانية المصرية نظرة أعقبتها ألف حسرة وكيف لا يتحسر المسلم عندما يرى ان أوفر الاوروبيين عقلا وهو يدافع عن الاسلام لا يرى الا ان ايمان المسلمين كايمان الفحامين من المسيحيين ليس الا وجدانا عاديا قوى فى النفوس وتمكن من القلوب وقد تساوي فى ذلك العالم والجاهل والامير والحقير ولا مجال بعد ذلك لمناقشة الباحثين وتخاصم المنتقدين. قال ذلك فى معرض الدفاع عن المسلمين ثم ساق طائفة من أساطير القرون الوسطى وأغانيها التى جاء بها الوضاع المسيحيون فى القرن الثانى عشر وقد أملاها عليهم ذلك الفكر المشترك الذى كان السبب فى الحروب الصليبية. ثم سأل نفسه عن قول المسلمين لو علموا بتلك الاساطير التى تنطف حقدا وبغضا

وبديهى أن الكونت كاسترى ما أورد تلك الاساطير الا ليعلمها المسلمون ويقولوا قولهم فيها (١)

---

(١) قال الكونت هنرى دى كاستري فى الصحيفة السابعة وما يليها من كتابه الاسلام :

فكل ناشد (من المسيحيين) كان يعد المسلمين مشركين غيرمؤمنين وعبدة أوثان مارقين وقد جعلوا لهم ثلاثة آلهة هم على ترتيب درجاتهم « ماهوم » — ويقال ماهوم وبافوميد وماهوميد - وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم «أبلين» ثم « ترفاجان » وذهبوا الى أن محمدا — الذى هو عدو الاصنام ومبيد الاوثان كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من ذهب كما كان يعتقد (الكرلوفنجيون) وأن المسلمين لما غلبهم الافرنج وردوهم الى أسوار سرقطه (مدينة باسبانيا استردها الفرنج من المسلمين سنة ٥١٢ هجرية) عادوا الى أصنامهم فحطموها كما أنشد به أحد منشدى ذلك العصر حيث قال :

« وكان أبلين إلههم فى مغارة هناك فتراموا عليه وأوسعوه شتما وسبا وصلبوه من يديه في أحد العمدان وجعلوا يدوسونه بأقدامهم ويوجعونه ضربا بالعصى حتى هشموه وأما (ماهوم) فقدرموه فى حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه وتمشى عليه وتلك اهانة لم تصب الهاً قبله »

ويظهر أن المسلمين لم يلبثوا أن ثابوا من ذنبهم واستغفروا آلهتهم وأصلحوا ما أتلفوه منها ولذلك أمر الامبراطور كارلوس بابادتها لما دخل سرقطه كما جاء فى قول ذلك الشاعر : - (وقد أمر الامبراطور الفرنساويين فطافوا جميع أنحاء المدينة ودخلوا المساجد والجوامع وبأيديهم مطارق من حديد فكسروا بها ماهوميد وجميع الاوثان والاصنام) ولذلك يقول «ريشار» فى أناشيده وهى جميلة لاشىء من الخرافة فيها الا أنها زور وبهتان حيث يطلب من الله أن يوقع الفشل العميم بين (أولئك الذين يعبدون صورة ماهوم) ثم جعل يحرض الاشراف على الحرب المقدسة وينصحهم أن ينكسوا أصنام المسلمين - بقوله - قوموا ونكسوا صنم

وهذا على ما يظهر هو ما عناه سعادة المعرب فى مقدمته بقوله :

ماهوميد وترافاجان وصبوهم على النار وقدموهم الى ربكم -

وذهبوا الى أن صورة ماهوم كانت تصنع من أنفس الاحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق اتقان ومن قرأ وصفه فى أناشيد « رولان » كان يحلف أن ذلك الشاعر انما يصف عن خبر وعيان اذ يقول :

« وكانت كلها من الذهب والفضة لو شاهدتها لأيقنت بأنه لا يمكن للعقل أن يتصور أجمل منها عظيمة الشكل لطيفة الصنع تلوح على وجهها سمات الشهامة . كان ماهوم من ذهب وفضة يأخذ بريقها بالابصار قد وضع فوق فيل على جلسة من أجمل المصنوعات خاويا من جوفه فيرى الضوء من خلاله مرصعاً بنفائس الاحجار المضيئة يرى الناظر باطنه من الظاهر وهو صنع عز عن المثال والنظير »

ولما كانت الآلهة تنزل الوحى وقت الشدائد وانهزم المسلمون فى احدى غزواتهم بعث قائدهم الى مكة يطلب به قال الراوى فجاء الاله محمد فى موكب عظيم يضرب بالطبل والمزامير ضربا يسمع له دوى قاصف وبعضهم يغنى بالمزمار والآخر بصفارة من الفضة والكل حولهم يرقصون ويغنون بأعلى أصواتهم وأقبلوا به فرحين حيث المجلس معقود والخليفة الدينى فى انتظاره فلما رآه قام يعبده بخضوع وخشوع

ثم أخذ ريشار بعد ذلك يقص كيفية مناجاة أولئك الوثنيين لذلك الصنم الذي وصفه بالتجويف وأن لا شىء فى باطنه الا ويرى من الخارج فقال :

وقد وضعوا فى جوفه عفريتا استحضره السحرة وصار ينط ويعربد ثم أخذ يكلم المسلمين وهم يسمعون

ولقد زاد بعضهم لذلك الصنم حتى جعلوه علامة على الدين الاسلامى كما جعلوا الصليب علامة للدين المسيحى فروى « بودوان » فى شيده على الكونتسه « يونتيو » أنها لما أرادت أن تعتنق الاسلام أمام صلاح الدين قالت أريد أن أعبد محمداً فأتونى به فلما صار بين يديها خرت ساجدة اليه

« على أن اشمئزاز البعض مما جاء فى هذا الكتاب (الاسلام) من الاقوال التى ردها المؤلف ودل على خطأها بالبرهان لايقابل الفائدة التى نراها من نشره والذي يقصد الفائدة ويتحرى مآخذها لاينبغى له أن يلتفت الى ماعساه يكون من نفور بعض القراء فانهم لو أنصفوا لما نفروا (الى أن قال)

وأظن أنه لايختلف اثنان فى أن من ألزم الواجبات حكاية ما حكوه واشهار ما قالوه واذا كان الغرض فى القسم الاول هو الرد عليه فليكن الغرض من هذا القسم معرفة مارمينا به وهذا بلاريب ينتج الرسوخ فى العقيدة عندنا وينتج أيضا اقتناع الواهمين بضد ماتوهموه وهذه النتيجة تقصد لكبار العقلاء ويحبها أفاضل العلماء »

فسعادة المعرب يتحد معنا فى الشعور بوجوب ادحاض تلك الاوهام التى تماسكت عقول الغربيين عن الدين الاسلامى الحنيف دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها لأن أقل نظرة فى تلك الاقوال تجعل القارىء يعتقد أنه يقرأ حكاية فى كتاب « ألف ليلة » المملوء بأوصاف الجان والعفاريت . أو قطعة من شعر هوميروس المفعم بخرافات اليونان ومعارك الآلهة وملاعب الارباب وولائمهم وحفلاتهم التى يزعمون أنه زفس (المشترى) كبير الآلهة كان يقيمها للانس والطرب مع زوجته الالهة هيرا ممثلة الهواء وربة الزواج فى هذا العالم . وافلون ممثل الشمس وإله النور واثينا الهة الحكمة والصناعة واريس (المريخ) إله الحرب ورب الفتك والبطش والزهرة آلهة الجمال والتهتك وربة الغرام والعشق . وفوسيذ إله البحار وهيفست إله النار ومثير البراكين وهائج الصواعق . وآذيس إله الظلمات والموت وولى العالم السفلى

فبمثل هذه الصفات الخرافية يريدون أن يصفوا لنادينا قويماً أساسه الاقوى «قل لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا سبحانه وتعالى عما يصفون »

فأين تلك الخرافات التى تصدى الكونت دى كاستري لادحاضها - وقد نقلنا طرفا منها فى الصفحة (الرابعة وما بعدها) من دين الله الذى هو آخر الاديان السماوية . ومن المؤكد أن للأخير من كل شىء ميزة ليست لما تقدمه

واذا كان موسى وعيسى عليهما السلام قد أرسلا الى بنى اسرائيل فان محمداً صلى الله عليه وسلم أرسل للناس أجمعين قال الله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وقال « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا »

وهذا التصريح لم يرد فى كتاب سماوى خلا القرآن الكريم

ولقد امتاز القرآن بتقرير مبدأ المساواة العام وهو الذى رفع مستوى الانسانية إلى أسمى الدرجات فجعل الامم كأسرة واحدة أبوها آدم والام حواء . قال الله تعالى :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبيناً »

فالخطاب فى النهى والامر والارشاد والوعظ للناس جميعا

ولقد اشتمل القرآن على أصول الشرائع وقواعد المعاملات وأيما أمة استمسكت به ولو كانت فى رأس الجبل بعيدة من كل حركة عمرانية لا يمضى عليها نصف قرن حتى تكون من أرقى الشعوب مدنية وبأساً . أنظر الى قوله تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

فاذا كان الناس فيما بينهم أمناء أوفياء وحكامهم عادلين مقسطين فأى تقدم يستعصى عليهم بعد ذلك مناله وأى عظيم من الأمور يشق عليهم احتماله

الا أن تقدم المسلمين فى الثلاثة القرون الاولى من الهجرة ما كان الا أثرا من فيوض ذلك الدين القويم . ولو أنه كان دين وثنية وكان المسلمون يعتقدون بأن فيهما - الارض والسماء - آلهة الا الله القوى الفعال كما وصفهم من روى عنهم الكونت دى كاسترى ماروى . لما كان لهم ذلك الشأن الرفيع الذى بلغوه فى أوائل عصر الدولة الأموية فى الشام والأندلس أو فى عهد الدولة العباسية قبل اغارة التتار . ولم يحل بالمسلمين ما حل بهم من الويل الا بعد أن نبذوا العمل بدينهم ظهرياً وأصبح اتباع ما أمرهم به الشرع نسيا منسيا

نشأ الدين الاسلامى على التسامح ففسح من صدره لكل أمة ولم يكتف بذلك بل أخذ على عاتقه حمايتهم اذا احتموا به وتأمينهم اذا استأمنوه ولم يرو عنه شىء من ارتكاب الفظائع التى سمعنا بمثلها فى تاريخ الشهداء فى مصر من نحو ما أصاب القبط من الرومان ولا ما أصاب العلماء والفلاسفة فى أسبانيا ولا ما أصاب البروتستانت فى فرنسا . وليس هذا التسامح خلقا فى أعلام المسلمين وأمرائهم يذهب بذهابهم بل هو أصل من أصول الدين نفسه قال تعالى « لا إكراه فى الدين » وقال : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم »

وقد خاطب تعالى النبى الكريم بقوله : « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » وقال « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

واذا كان التمدين العصري لم يصل الى اعلان حقوق الانسان ونشر حرية الاعتقاد الا بعد أن أفنى الفلاسفة أعمارهم وأذابوا فى التفكير وطول النظر والاناة أذهانهم ثم ختموا ذلك بالثورة الكبرى فلقد سبقهم الاسلام بتقرير هذا المبدأ السامى قبل بضعة عشر قرنا فقال : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »

وما كان لأحد من رجال الدين الاسلامى وفيهم شيوخ الاسلام والخلفاء أنفسهم أن يغيروا أو يبدلوا فيما قضى به الله فى كتابه ذلك الكتاب الكريم الذى هو المعجزة المستمرة الظهور وليس هناك من كتاب جمع بين دفتيه ماجمع القرآن الكريم

من أجل هذا لم يكن لطاعن أن ينال من ذلك الدين القيم منالا ولو ارتفع فكه الاعلى الى أعنان السماء وانخفض فكه الأسفل الى صميم الأرضين . (قل لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)

ولقد عجبت من يفترون على هذا الدين القويم من الأباطيل مايفترون ويعزون لذلك الكتاب الكريم من الاضاليل ما يعزون مما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا

وما كان عجبي الا من الاطلاع على تلك الطقوس الغريبة التى تستعمل فى بعض الكنائس بصورة رسمية لتنصير المسلمين كأنهم من عباد الاصنام

فلقد نقل سعادة فتحى زغلول باشا فى آخر معربه — الاسلام — الصيغة المستعملة في الكنيسة اليونانية لخروج المسلم عن دينه

ولقد ذكر الكونت دى كاسترى أنه نقل هذه الصيغة (١) من

---

(١) هذا نص الصيغة المذكورة نقلا عن الصحيفة ١٥٧ وما بعدها من كتاب الاسلام

يجب على المريد أن يصوم أسبوعين ويتعلم الصلاة التى علمنا اياها سيدنا عيسى اليسوع فى أناجيله المقدسة وكذلك علامة الدين وبعد ذلك يلبس القس ثوبه الكهنوتى ويأتى بالمريد الى حظيرة التكريز بحضور المؤمنين الذين يرغبون فى الحضور ويوقفه أمام الهيكل مكشوف الرأس ثم يقول له أنت يامن يترك اليوم ديانة بنى سارة من غير أن تكون مجبراً على ذلك ولا خائفاً أو مغشوشاً بل باختيارك عن طيب نفس

اللغة اللاتينية الى اللغة الفرنسية عن كتاب سيلبورج المطبوع سنة ١٥٩٥
على أن الكونت قد أحسن صنعا بنعته هذه الصيغة بالغرابة وانها مشتملة على خرافات من السباب
لاجرم أن واضعى هذه الصيغة قد ضلوا ضلالا بعيداً في فهم الاسلام وغلوا

وقلب طاهر محب للمسيح ودين المسيح قل كما أقول انى أقلع عن ديانة بنى سارة كلها وألعن م ....، (وذكر اسم محمد ﷺ) الذى يمجده بنو سارة ويقولون انه نبى الله ورسوله فيظهر المريد رضاه بنفسه ان كان يعرف اللغة اليونانية أو بواسطة مترجم ان جهلها أو بواسطة وصيه ان كان قاصراً ويتلو القس بعد ذلك الصيغة الآتية والمريد يكررها من بعده فاذا تم القول قال القس فلندع الرب . والناس يجيبونه : رب ارحم الى آخر صيغة الدعاء ويختمون بلفظة آمين ويبارك القس للمريد ويصرفه ويصير نصرانيا من اليوم التالي لهذا الاحتفال

أماما يقوله القس ويكرره المتنصر فهو مايأتى :

أنا الذى فى هذا اليوم أترك ديانة بنى سارة حباً فى الديانة المسيحية بغير أدنى اكراه ولا اضطرار ولا غرور ولا غواية بل عن طيب نفس محبة فى المسيح ودين المسيح اني أقلع عن ديانة بنى سارة كلها وألعن (م ....) الذى يمجده بنو سارة ويقولون انه نبى الله ورسوله وألعن ع .... (وذكر اسم الامام على كرم الله وجهه) وصهر النبى والحسن والحسين ولديه وأبا بكر وعمر وطلحة ومعاوية وزيداً واليزيد والسيد وعثمان وجميع صحابة محمد وأنصاره وخلفاءه وألعن (وذكر أسماء سيداتنا) عائشة وزينب وأم كلثوم زوجات محمد الاوليات ثم البقية اللاتى هن أكثر جرما ومعهن ابنته فاطمة وألعن مايقال له (ثم ذكر القرآن الكريم) أعنى به سفر محمد أو كتابه الذي ادعى أنه نزل عليه من السماء على لسان الملك جبريل وكذلك مذهبه بأجمعه وقواعد دينه وقصصه الكاذبة وأسراره وسنته وما أتى به من الكفريات وألعن جنة محمد التى يقول ان فيها أربعة أنهار تجرى فيها المياه العذبة ولبن لايحمض وخمر لذيذ وعسل نقى ويقيم فيها بنو سارة يوم القيامة التي تقوم بعد خمسمائه ألف عام مع نسائهم منهمكين فى الشهوات البدنية

فى الكراهة لرسول الله وكتابه المنزل الذى يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء و المنكر وأثبتوا أنهم أشد أعداء الاسلام تعصباً وأقلهم ادراكا لحقائق الاشياء

ويجلسون تحت شجرة سدره ويأكلون من الطيور مايشتهون وجميع فواكه الخريف ويشربون من عين الكافور وعين الزنجبيل التى تسمى سلسبيلا ويشربون أيضا نبيذا مزاجه من تسنيم وتعظم أجسامهم حتى تبلغ السماء طولا رجالا ونساء ويتمتعون بالعشق والغرام بدون ملل بحضرة الله لانه يقول: ان الله فوق كل حياء وألعن (ثم ذكر الملائكة) الذين يسميهم محمد هاروت وماروت وألعن أحاديث محمد وما نقله عن العهد القديم وألعن ذلك المذهب الكاذب وذلك الوعد الذى يدعى فيه محمد أنه سيكون فاتح الجنة وأنه يدخلها سبعون ألفاً من بنى سارة الصادقين وأن الله يحكم فى المجرمين فيغلون بالسلاسل من رقابهم ثم يدخلون الجنة أيضا ويقال لهم عتقاء محمد

وألعن (ثم ذكر شريعة محمد صلى الله عليه وسلم) فى الزواج والطلاق وتطهير الزانيات وعدد الزوجات والسرارى وجميع مذهبه المنجس فى جميع هذه الاشياء

وألعن ماجاء به م... من السب فى الله (!...) حيث يقول أنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء وأن الله لوشاء لقتل بعضنا بعضا وأنه يفعل مايريد وأنه فاعل الشر والخير معا وهكذا الصدفة والبخت وأنهما المؤثران فى كل شىء

وألعن أكذوبة م... التى يقول فيها أن سيدنا وإلهنا عيسى اليسوع هوابن مريم أخت موسى وهرون وأنه ماولد من اللحم بل حملته أمه من روح الله وأنه قلد الطيور لما كان صبيا من الطين ونفخ فيها فصارت حية وألعن مذهب م... الذى يقول فيه أن المسيح ليس ابن الله بل نبى الله ورسوله لانه ليس لله شريك وأن الذين يقولون أن المسيح شريك الله سيعذبون فى نار جهنم

وألعن قول م... أن لله فى مكة بيتا للصلاة بناه ابراهيم واسماعيل يسمونه

ومن قصور النظر وضعف الحجة أن يمدح المرء دينه بسب دين غيره ويحاول

الكعبة ويأمر بأن المصلين يولون وجوههم قبله أينما كانوا وألعن ذلك المعبد نفسه الذى يقولون أن فى وسطه حجرا كبيرا يمثل الزهراء ويقدسون هذا الحجر الذى يقال بأن ابراهيم تعرف عليه بهاجر أو عقل فيه جمله لما أراد أن يقرب اسحاق !! بان الذين يزورون هذا المعبد يضعون احدى اليدين فوق الحجر ويمسكون الاذن بالثانية ثم يدورون حوله حتى يأخذهم الدوار فيخرون الى الارض وألعن (ثم ذكر اسم) مكة ذاتها وأرضها كلها والحجارة السبعة التى يرميها فيها بنو سارة ضد المسيحيين وجميع صلواتهم وعباداتهم وشعائرهم ومذاهبهم

وألعن قصة (وذكر اسم محمد صلى الله عليه وسلم) فى الناقة التى يقولون انها خصصت لله فعقروها فانتقم منهم لأجلها وألعن الذين يعبدون نجم الصباح (!...) أعنى بها الزهراء والشعرى التى يسمونها الكبرى وألعن جميع قواعد (وذكر اسم محمد صلى الله عليه وسلم) التى يشتم فيها النصارى ويقول انهم كافرون ومشركون ويهيج بنى سارة على قتلهم وابادتهم ويقول ان مقاتلتهم هى طريق الله وأن من مات من بنى سارة فى محاربتهم يكونون من أبناء الله ولهم الجنة (!...)

وألعن تعاليم م (وذكر الاسم الكريم) النجسة فى الصلاة حيث يقول ان من لم يجد ماء فليأخذ تراباً دقيقاً ويمسح به وجهه ويديه والعن قول م... ان الانسان خلق من طين وقطرة ماء ودود الحكمة ومادة متأكلة

وفوق ذلك كله ألعن ..... (استغفر الله العظيم) الذى يقول عنه أنه إله فرد كامل لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

وعليه ألعن ماتقدم كله وم . . . نفسه و . . . . الكامل (! . .) وابتعد عنه والتحق بالمسيح وهو الحق وحده واعتقد بالأب والابن وروح القدس

ثم يتبع ذلك تلخيص المذهب المسيحى ويختم المريد الصيغة بالعبارة الآتية

واذا كنت أقول ما أقول عن غش أو خيانة لا عن اعتقاد ويقين وقلب يحب اليسوع فعلي اللعنة ولتكن روحى مع الشيطان

رفع قدره بالحط من كرامة سواه . ليقل كل فى دينه مايريد وينسب اليه من التعاليم ما يستطيع أن ينسب ولكن هذه الارادة لاتقتضى لعن الارض والسماء ومابينهما دلالة على الابتعاد عن ذلك الدين

كتب الكثير من ذوى الفضل فى الدفاع عن الاسلام ورد شبهات المبطلين فما رأينا واحدا شط ذلك الشطط الذى صوره الكونت دى كاسترى فى كتابه ماثلا للعيان

رأى السيد جمال الدين الافغانى

تدبر ماكتبه العلامه فيلسوف الشرق المرحوم جمال الدين الافغانى فى رد الشبهات فهل ترى فى عبارته ماينم عن كراهة لدين من الأديان . كلا وهذا نص بعض عباراته فى هذا الشأن

الأمة الاسلامية

« جاءت الشريعة المحمدية والديانة السماوية فأشربت قلوبها تلك العقائد الجليلة ومكنت فى نفوسها تلك الصفات الفاضلة وشمل ذلك آحادهم ورسخت بينهم تلك الأصول الستة بدرجة يقصر القلم دون التعبير عنها فكان من شأنهم أن بسطوا سلطانهم على رؤس الأمم من جبال الالب الى جدار الصين فى قرن واحد وحثوا تراب المذلة على رؤس الاكاسرة والقياصرة مع أنهم لم يكونوا الا شرذمة قليلة العدد نزرة العدد ولم ينالوا هذه البسطة فى الملك والسطوة فى السلطان الا بما حازوا من العقائد الصحيحة والصفات الكريمة . هذا الى ما جذبه مغناطيس فضائلهم من مائة مليون دخلوا فى دينهم فى مدة قرن واحد من أمم مختلفة مع أنهم كانوا يخيرونهم بين الاسلام وشىء زهيد من الجزية لايثقل على النفوس أداؤه هكذا كان حال هذه الامة الشريفة من العزة ومنعة السلطان (الى أن قال) فأفسدوا (أى الطبيعيون) أخلاق الملة الاسلامية شرقا وغربا وزعزعوا

أركان عقائدها وساعدهم مد الزمان على تلويث النفوس بالاخلاق الرديئة وتجريدها من السجايا الكاملة التى كان عليها أبناء هذه الملة الشريفة حتى تبدلت شجاعتهم بالجبن وصلابتهم بالخور وجرأتهم بالخوف وصدقهم بالكذب وأمانتهم بالخيانة ووقع المسخ فى هممهم فبعد أن كان مرماها مصالح الملة عامة صارت مقصورة على المنافع الشخصية الخاصة وعادات رغباتهم لاتخرج عن الشهوات البهيمية وكان من عاقبة ذلك أن جماعة من قزم الافرنج صدعوا أطراف البلاد السورية وسفكوا فيها دماء آلاف من أهاليها الابرياء وخربوا ما أمكنهم أن يخربوا وثبتوا بها نحو مائتى سنة والمسلمون فى عجز عن مدافعتهم مع ان الافرنج كانوا قبل عروض الوهن لعقائد المسلمين وطروء الفساد على أخلاقهم فى قلق لايستقر لهم أمن على حياتهم وهم فى بلادهم خوفاً من عادية المسلمين وكذلك قام جماعة من أوباش التتر والمغول مع جنكيز خان واخترقوا بلاد المسلمين وهدموا كثيرا من المدن المحمدية وأهدروا دماء ملايين من الناس ولم تكن للمسلمين قدرة على دفع هذا البلاء عن بلادهم مع أن مجال خوفهم فى بدء الاسلام على قلة عددهم كان ينتهى الى أسوار الصين

وما نزل بالمسلمين شىء من هذه المذلات والاهانات ولو رزئوا بالتخريب فى بلادهم والفناء فى أرواحهم الا بعد ماكلت بصائرهم ونغلت نياتهم ومازج الدغل قلوبهم وخربت أماناتهم وفشا الغل والادهان بينهم ودار كل منهم حول نفسه لايعرف أمته ولا ينظر الى ملته فأصبحوا بقناة خوارة بعد أن كانت قناتهم لا تلين لغامز الا أن بقية من تلك الاخلاق المحمدية كانت راسخة فى نفوس كثير منهم كامنة فى طى ضمائرهم فهى التى أنهضتهم من كبوتهم وحملتهم على الجد فى كشف السطوة الغربية عن بلادهم فأجلوا الامم الافرنجية بعد مئين من السنين وخلصوا البلاد السورية من أيديهم وطوقوا الجنكيزيين بطوق الاسلام وألبسوهم تيجان شرفهم ولكنهم لم يستطيعوا حسم داء الضعف واعادة ما كان

لهم من الشوكة الى المقام الاول فان ما كان من شوكة وقوة انما هو أثر العقائد الحقة والصفات المحمودة فلما خالط الفساد هذه وتلك تعسر عود السهم الى النزعة . ولهذا ذهب المؤرخون الى أن بداية الانحطاط فى سلطة المسلمين كانت من حرب الصليب والاليق أن يقال أن ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد الدهرية فى صورة الدين وسريان هذه السموم القاتلة فى نفوس أهل الدين الاسلامى

الشعب الفرنسى

شعب كان قد تفرد بين الشعوب الأوربية باحراز النصيب الأوفر من الاصول الستة فرفع منار العلم وجبر كسر الصناعة فى قطعة أوربا بعد الرومانيين وصار بذلك مشرقا للتمدن فى سائر الممالك الغربية وبما أحرز الفرنساويون من تلك الاصول كانت لهم الكلمة النافذة فى دول الغرب الى القرن الثامن عشر من الميلاد المسيحى حتى ظهر فيهم (فولتير) و (روسو) يزعمان حماية العدل وأحييا مابلى من عظام الناتور اليسم (الطبيعيين) ونبذ كل تكليف دينى وغرسا بذور الاباحة والاشتراك وزعما أن الآداب الالهية جعليات خرافية كما زعما أن الاديان مخترعات أحدثها نقص العقل الانسانى وجهر كلاهما بانكار الالوهية ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الانبياء (برأهم الله مما قالا) وكثيرا ماألف فولتير من الكتب فى تخطئة الانبياء والسخرية بهم والقدح فى أنسابهم وعيب ماجاءوا به فأخذت هذه الاباطيل من نفوس الفرنساويين ونالت من عقولهم فنبذوا الديانة العيسوية ونفضوا منها أيديهم وبعد أن أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة فى زعمهم شريعة الطبيعة وزادهم الهوس فى بعض أيامهم حتى حمل لفيفا من عامتهم على أن يتناولوا بنتا من ذوات الجمال فيهم ويحملوها الى محراب الكنيسة ونادى زعيم القوم . «أيها الناس لايأخذكم الفزع بعد

اليوم من هدهدة الرعد ولاالتماع البرق ولا تظنوا شيئا من ذلك تهديدا لكم من إله السماء يرسله عليكم ليعظكم به ويزعجكم عن مخالفته كلا فهذه كلها أثار الطبيعة (الناتور) ولامؤثر فى الوجود سواها فحلوا عن أعناقكم قيود الاوهام ولاتقيموا لانفسكم إلها من خواطر ظنونكم وان كانت العبادة من رغائب شهواتكم فهاهي العذراء قائمة فى المحراب على مثال الدمية فاسجدوا لها ان شئتم »

والاضاليل التى بثها فولتير وروسو هى التى أضرمت نارالثورة الفرنساوية المشهورة ثم فرقت بعد ذلك أهواء الامة وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها فاختلفت فيها المشارب وتباينت المذاهب وأوغلوا فى سبل الخلاف زمنا يتبعه زمن حتى تبين صدعهم وذهب كل فريق يطلب غاية لايرى وراءها غاية وليس بينها وبين غايات سائر الفرق مناسبة وانحصر سعى كل قبيل فى التماس مايواتى لذته ويوافق شهوته وأعرضوا عن منافعهم العامة وأعقب ذلك طروء الخلل لسياستهم الخارجية شرقا وغربا (لعله يشير الى حالة فرنسا أيام وضعه هذا الكلام منذ نيف وأربعين عاما)

« نعم أن نابليون الاول بذل جهده فى اعادة الديانة المسيحية الى ذلك الشعب استدراكا لشانه لكنه لم يستطيع محوآثار تلك الاضاليل فاستمر الاختلاف بالفرنساويين الى الحد الذى هم عليه اليوم . هذا الذى جر الفرنساويين للسقوط فى عار الهزيمة بين يدى الجرمانيين وجلب اليهم من الخسائر ماتعسر عليهم تعويضه فى سنين طويلة » - انتهى -

***

هذا لسان صدق من ألسنة المسلمين ينطق على خصمائهم بالحق ويعير غير المستمسكين بدينهم من المسيحيين ويقول لهم أن نبذهم الدين انما هو الذى عاد عليهم بالانهزام أمام أسياف بروسيا وهو فى جداله انما يجادل بالتى هى أحسن

معتمداً على قوة الحجة والبرهان . فأين هذا من عمل أولئك الحمقى الذين يعتمدون فى تأييد دينهم على السباب والشتائم واللعنات الوقحة حتى وهم قائمون يصلون فى الكنائس كما أثبت الكونت دى كاسترى ذلك

رأى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده

ولم يكن المرحوم السيد جمال الدين الافغانى وحده هو الذى تفرد بهذه المنزلة السامية فى جدله بل ان نابغة الشرق ونبراس مصر المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الأسبق كان وهو فى أشد انفعال فى جداله مع وزير خارجية فرنسا يتنكب الحط من دين خصمه واليك نبذة من قوله فى هذا المعنى

***

« هذه هى العقيدة السامية أوالدعوة المحمدية أو المدنية الاسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة فى قاصية من الارض ولم يتلمظوا بشىء من نعيم الحضر ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة حتى بلغت بهم مابلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغاً مكنهم من التلطف بالأمم حتى وقعوا علي ما كان خفياً لديها وكشفوا ما كان مستوراً عندهاواستخرجوا من كنوزمعارفها ماظهر فضله على الأروبيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية » - انتهى -

***

فعلى هذا الوتر يوقع كبار الكتاب الاسلاميين نغمات البحث مع المسيحيين فلا يؤلمون لهم عاطفة ولايحركون عليهم من حفيظتهم ساكناً ولا يثيرون فى نفوسهم ما كان كامناً بل هذاسعادة معرب كتاب الاسلام لم يغمز دين المسيحيين بكلمة والقلم فى يده يألم من وطأة ماينقله الى لسان أمته من كلم أولئك الذين

روي عنهم الكونت دى كاسترى ماروى وكل هذا عملا بالتسامح الاسلامى الذي ذهب مثلا بين العالمين

***

وخير من كتب على هذا الاسلوب فى العهد الأخير حضرة الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش نزيل الأستانة الآن

فلقد وضع وهو أستاذ للغة العربية فى جامعة اكسفورد بانكلترا كتاب — الاسلام دين الفطرة — فما ترك بعده كلمة لقائل ثم قدم كتابه الى مؤتمر المستشرقين الذي عقد فى الجزائر سنة ١٩٠٥ فبهت الذين تذوقوا طعم البلاغة وقوة الحجة من خلاله وقد طبع فى سنة ١٩٠٥ الطبعة الاولى ونفد ماطبع منه وتشوق العارفون بقدر الاستاذ الى اعادة طبعه

وقد خار الله لى وأنا أقلب صحائف الكتب على أثر نظرتى فى كتاب « الاسلام » للكونت دى كاسترى ان عثرت على نسخة لدى صديق من أفاضل مريديه قد قيد الاستاذ بخطه فى هامشها شروحا وتفصيلات لم تكن فى أصل الكتاب فزادته قوة حجة وجلاء شرح وقد رأى ذلك الصديق الصادق أن أبلغ رد على من تصدى صاحب كتاب الاسلام لتفنيد مزاعمهم هو نشر مطوى ذلك الكتاب فكنت على رأيه لان الاستاذ أقدر من كتب على صد غارة الأقلام والزود عن حمى دين الاسلام

لذلك أرجو أن أكون قد سلكت المحجة الواضحة واهتديت الى الصراط المستقيم وان في ذلك الكتاب لعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد

أحمد حلمى

بسم الله الرحمن الرحيم

زارنى ذات يوم وأنا فى أكسفورد من بلاد الانكليز لفيف من نجباء طلبة العلم فى كليتها الجامعة فما كاد يستوى بهم المجلس حتى أخذنا نتحادث فى أمر الشرق والشرقيين وما لهم من الاخلاق والعادات والاحوال التى تباين فى كثير من الوجوه ماعليه أهل أوربا الآن حتى أفضى بنا المقام الى الكلام فى الاسلام فوجدت من خلال حديث القوم أنهم لايكادون يفقهون للاسلام معنى سوى أنه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات (وأن المسلمين يعبدون محمداً كما يعبد النصارى المسيح) بن مريم وما زادونى فيهم بصيرة فلطالما قابلت من أمثالهم ما أوقفنى على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف

فأخذت اذ ذاك أبين لأولئك الأفاضل أصول الدين الاسلامى وقواعده وحكم بعض تكاليفه فكنت أرى القوم يتدبرون ماأقص عليهم من غير أن يستهوى نفوسهم تعصب ولايعمى قلوبهم عناد أوجحود بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ماكانوا يلقنونه منذ المهد من النقائص التى مثلت لهم الاسلام في أبشع صورة وأقبحها ولم يكد ينتهي بنا الحديث حتى انطلق أحدهم قائلا « يخيل لى أيها الشيخ أن هذا الدين لاينافى الفطرة فى شىء » فأجبته اذ ذاك — وقد تذكرت قوله عليه السلام (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه) نعم وكذلك سماه النبي صلى الله عليه وسلم وترجمت لهم ذلك الحديث الشريف ثم عن لى بعد ذلك أن أضع عجالة فى بيان معنى كون الاسلام دين الفطرة وتوجيه ذلك ولما دعيت الى هذا المؤتمر الجليل وجدتها أحسن فرصة أتشرف

فيها بعرض ماعن لى بين أعضائه الأماثل لعلى أسعد بقبولهم لما جلبته من بضاعتى المزجاة فأقول والله المستعان

١ — الحديث

روى البخارى عن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله عليه وسلم (ما من مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيهامن جدعاء حتى تكونوا تجدعونها) وقد اختلف المفسرون كعادتهم فى المراد من كلمة الفطرة فذهبوا طرائق قدداً

والذي يفهم من تعقيب ذلك فى الحديث بقوله صلى الله عليه السلام فأبواه يهودانه أو ينصرانه الخ أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ على الانسان بكسب أبويه كالجدع الذى يصيب الشاة بعد أن تولد على الفطرة سليمة لا عيب فيها

واعتبر ذلك بما نص عليه الشرع الاسلامى من عدم تكليف القاصرين والا يؤاخذوا بما فعل أباؤهم من التهويد والتنصير حتى يبلغوا راشدين راضين بدين آبائهم فيؤاخذون اذ ذاك وقد ألقيت على كواهلهم أعباء التكاليف بما كسبت أيديهم

فترى الاسلام قد اعتبر القاصرين ولو أبناء النصاري أو اليهود أو المجوس مسلمين ناجين حتى يكلفوا . فالدين الفطرى لكل مولود هو الاسلام الا فيما يتعلق ببعض المعاملات الدنيوية كالارث ونحوه فان الاطفال في ذلك تابعون لآبائهم

(وبعد) فانا نريد أن نذكر لك وجه كون الاسلام دين الفطرة وأنه لو ترك الطفل وشأنه حتى كبر غير مهود ولا منصر لمن اختار بفطرته الا الاسلام فانه لا يمكن توضيح ذلك الا بالبحث فى بعض أصول الاسلام وقواعده والاغراض التى يرمى اليها الشارع فى تكاليفه فنقول

٢ — الفطرة والتوحيد

كل انسان يشعر فطرة بأن ثمة واحدا قد نظم هذا العالم ودبره لا يمكن أن

يشابه الممكنات فى شىء من صفاتها فليس بجسم ولا عرض ولا محدود ولا متحيز لا يستطاع ادراكه الا بآثاره الشاخصة غير قابل للحلول ولا للصعود ولا للنزول الى ذلك اهتدى الاعرابى بفطرته فقال « البعرة تدل على البعير وأثر الاقدام يدل على المسير . فسماء ذات ابراج . وأرض ذات فجاج . كيف لا تدلان على اللطيف الخبير » فجاء الاسلام مصدقا لما اقتضته الفطرة السليمة ولم يزد فى الاستدلال شيئاً سوى أن أيقظ العقول ونبهها الى النظر فى آثار الله تعالى فما عليك إلا أن تتصفح القرآن الكريم فتجد ذلك فى أكثر من آية من آياته

نعم ربما قال انسان انه لو كان التوحيد فطريا لما اختلف الناس فى عقائدهم وتباينوا فى تصوير آلهتهم فذهبوا كما نعلم مذاهب شتى حتى لا تكاد تجد تشابها بين آلهتهم . فستحقق لك بعد أن هذا مباين لمقتضى الفطرة اذ منشأ ذلك أن الانسان ميال الى الاعتماد على مايقع تحت حواسه من الكائنات والى انكار ما ليس له فى ذهنه صورة ولا حدود محصورة

(فمن) ذلك ما قصه الله فى شأن معاندى أهل الكتاب حيث قال (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات)

ومن البديهى أن الشىء لا يصح انكاره الا اذا ثبت بالبرهان القطعى عدم وجوده اما مجرد عجز المدارك عن تصوره وتحديده والاحاطة به فمن العجب أن يتخذه ذو عقل برهانا ينفى به وجود الشىء وأعجب من ذلك أن ترى أكثر المتحككين بأهل العلم فى هذا العصر على هذا المذهب العجيب الذى هو آية الجهل ونهاية الحمق

جاء الاسلام فى وصف الحق واثباته بما يطابق مقتضى الفطرة والعقل تمام المطابقة أفلا تدبرت قوله تعالى (الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا

نوم له مافى السموات وما فى الارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وماخلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه الا بماشاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم)

لقد جمعتنى المصادفات برجل مسلم من الانجليز لم يرج من أسلامه شيئا من حطام الدنيا ولا أن ينال جاها يتخذه عدة لنيل شىء من الرغائب السياسة فقال لى أن فى القرآن الكريم آية لا أمل من تكرارها ولا من ترديد النظر فيها جاءت فى وصف الله تعالى بما ليس فى استطاعة أحد من أئمة الاديان الاخرى على ذكائهم وسعة اطلاعهم أن يأتوا به ثم تلا بالانجليزية تلك الآية الكريمة آية الكرسى . فبأبيك أيها العربى هل مرت تلك الآية مرة على سمعك الا وأنت لاه عنها تلعب أو حركت بها لسانك الا وأنت بها تعجل

هذا وتتميما لموضوع التوحيد أريد أن آتيك هنا بكلمات عثرت عليها للورد ما كولى الكاتب الانكليزي الشهير اذ قال ماترجمته :

« ان علماء المنطق قد بنوا عقائدهم وقضاياهم على البرهان العقلى فأمكنهم أن يسلموا القول بأن من الاشياء مالا يمكن للعقل أن يحيط به بخلاف السواد الاعظم من العامة فان معظم أفكارهم وقضاياهم إما خيالية أو وهمية أو شعرية فلا يكادون يبنون شيئاً من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم ومن هنا نشأت كما يظهر الأديان الوثنية فى كل أمة وفى كل جيل فى كل زمن فاختلفت لذلك صور الآلهة باختلاف ماصوره خيال معتقديها

ولطالما أذن فينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديما فى دينهم من البدع مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون لهم إله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والاجلال . ويمكن القول بأن معظم الاسباب التى ذكرها « جيبون » وجعلها أساس انتشار الدين النصرانى لم تؤثر ذلك الأثر ولم تنشر ذلك الدين فى أطراف الارض إلا لأنها كانت مشفوعة بكثير من تلك

القضايا الوهمية التى كان لها أكبر سلطان على نفوس السذج من العامة فان إلها لم يخلق وكائنا لاتدركه الأبصار ولا تحيط به الظنون لم يقل به الا الفلاسفة العالمون أما الاخلاط ضعاف العقول من الناس فانهم ضاقت دائرة أفكارهم وانقطعت سلسلة ادراكهم عن أن تصل الى القول باله ليس له صورة محدودة في نفوسهم فكانوا يتأففون ويهزءون ويضحكون من أولئك الفلاسفة راميهم بالبله أو قصور الذهن

طاشت النفوس فى الازمنة القديمة وضلت الصراط السوى وقست القلوب وانتهكت الحرمات فجاء المسيح عليه السلام وأخذ يعلم الناس ويدعوهم الى ماجاء به من الهدى فمنهم من آمن ومنهم من كفر

ولم يسلم تابعو المسيح من النصارى أن يصيبهم فى أيمانهم مثل ما أصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم فتمثل الاله لهم فى صورة آدمى مشى بينهم وشاركهم فى أغراضهم ومايعتريهم من الانحلال والاضمحلال كما كان يبكى على القبور وينام فى الحظائر ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب فظهروا بذلك للعالم فى لباس جديد من الوثنية ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان فكان القديس جورج لديهم إله الحرب كما كان المريخ عند اليونان وكذلك اتخذوا العذراء وسيسليا وغيرهما آلهة الجمال وفنون الأدب كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى آلهات لدى اليونان وهلم جرا

ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يزيلون مالصق بعقول العامة من تلك الصور الوهمية ولكنهم لم يفلحوا

«تجد العامة الى هذا اليوم يتعشقون سماع كثير مما لامعنى له من الخزعبلات ويتهافتون على تلقف سير بعض من لا قيمة لهم فى سوق الفضائل والمكرمات أكثر مما يميلون الى تعرف وتفهم شىء من قواعد الدين الاساسية»

انتهى ببعض تصرف

هذا ماقاله اللورد ماكولى فى شأن الدين الذى يعتنقه ويذعن له وفى الأمم التى شاركته فى الأخذ به وبيان أحوالهم فتذكرت هنا والحديث شجون ما أصاب عقول المسلمين من المس الذى أصاب عامة غيرهم . أفرأيت الذين يذهبون الى الأضرحة فيعفرون وجوههم بترابها ويتضرعون الى من فيها متوسلين بهم الى من هو أقرب اليهم وأسمع لدعائهم وأقدر على اصابتهم وأحق بعبادتهم وخشوعهم (قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لانفسهم نفعاً ولا ضرا . أإله مع الله أمر أن لاتعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) والخلاصة التى جاء بها الشرع الاسلامي فى الايمان بالله وتقديسه عن الحلول ومشابهة الغير وتوحيده بالعبادة دون كائن غيره هى السبيل التى لا يصل اليها الانسان بفطرته متى خلى وشأنه غير مضلل ببعض الاباطيل ولا مدفوع الى غير تلك السبيل

بسم الله الرحمن الرحيم (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)

٣ — النبوة وتقريرها والغرض الفطرى منها

ظهر النبى صلى الله عليه وسلم فى أمة أمية دينها الوثنية ومن أخلاقها الكبر والغطرسة والعناد ووسائل ارتزاقها السلب والنهب فلما جاءهم الرسول بالحق الواضح اختلفوا فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه

كان معاندو اليهود والمشركين يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام أن يثبت دعواه النبوة بشىء من المعجزات الخارقة للعادة فكان صلى الله عليه وسلم يرجع بهم الى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل اذ لاعلاقة عقلية بين دعوى الرسالة والقدرة على شق الارض ونحوه من المعجزات ولقد نقل عن ابن رشد أن الآيات الاقتراحية لاتدل دلالة قطعية على دعوى الرسالة اذ جاءت منفردة لأنها ليست من أفعال الصفة التى سمى بها النبى نبيا أو الرسول رسولا ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يرجع بالقوم الى ماهو من حدوده والى تدبر

ما جاء به القرآن الكريم من الهداية فان دلالة القرآن على هذه الصفة كدلالة الابراء على الطب لمن يدعيه قال تعالى (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) ولطالما تنصل النبى صلى الله عليه وسلم من اجابة مطالب العرب وأرشدهم الى ماقصد من شريعته وهو اصلاح شأن العالم الانسانى والقضاء على ما كان سائدا فيهم من الضلال المبين قال تعالى (قل لاأقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك ان أتبع الا مايوحى الى قل هل يستوى الاعمى والبصير أفلا تتفكرون) وجاء فى سورة الاسراء (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشراً رسولا)

كم حذر النبى صلى الله عليه وسلم الناس من اللجاج فى طلب المعجزات وبين لهم وخامة عواقبها وسوء نتائجها فمن ذلك قوله تعالى (وما نرسل بالآيات الا تخويفا) وقال (قل انى على بينة من ربى وكذبتم به ما عندى ماتستعجلون به ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين)

لم يكن طلب المعجزات من النبى عليه السلام ناشئاً عن ترو من العرب وصدق رأى وسلامة فطرة واصرار منهم على أن لا يقبلوا شيئاً الا ببرهان ولكنهم كانوا يقترحونها اما عبثا أو عنادا أو عملا بما تلقفوه عن الجاهلية الاولى وما أملت عليهم نفوسهم التى أخذ الضلال بتلابيبها فكان النبى عليه السلام يدعوهم الى العمل بمقتضيات الفطرة الانسانية وبطلب مالا يخالف سنة الله التى لن تجد

لها تبديلا قال تعالى (وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طيغانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) أراد الله الحكيم أن يبين للناس أن تلك الآيات التي يطلبونها لاتصلح مفحما لهم وحجة قائمة تلزمهم اتباع شرعها اذ مثلها فى ذلك مثل من أدعى أن ٢ و ٢ تساوى ٥ وبرهن على ذلك بابرائه مريضا من داء عضال فان المدعى بها أتى من الأمور العجيبة وخوارق العادات ما لا يستطيع أن يحمل أحداً على اعتقاد دعواه التى بها أتى ومن هنا كان الاقدمون من اليهود وغيرهم يؤولون ما يأتى به أنبياؤهم من المعجزات فقائل انها سحر وقائل انها من أعمال الجن المسخرة لهم حتى اذا ضاقت عليهم الأسباب لجؤا الى التماس أسباب أخرى غير معقولة كاعتذارهم بعجز افهامهم عن ادراك معنى تلك الآيات مع اصرارهم على الجحود والانكار كما قال تعالى (وقالوا قلوبنا غلف) وقال تعالى (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) فكانوا يقفون بعد أن تأتيهم الآيات موقف المحارب لله العابث بآياته فيصيبهم ما يصيبهم من العذاب والانتقام لما حاربوا الله ورسوله وسخروا منهم وتلاعبوا بما جاؤا به من الآيات

طالما كذب المشركون النبى ﷺ كما فعل أسلافهم وناله من عنائهم ولجاجهم فى طلب المعجزات ومغالاتهم فى العناد ما كان يحزنه ويكاد يطلق لسانه أن يستعجل بهم السوء. ولو كانت الخوارق فى يد النبى ﷺ وكانت من البراهين التى تصح لالزام الخصم وافحامه لما قعد بالنبى عليه السلام أمر عن الاتيان بها ولكنها كلمات الله التي لا مبدل لها وسنته التى لا تتغير (وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية

ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين)

والخلاصة – اننا نرى القرآن فى غير موضع يؤذن فى أرباب العقول بالتدبر وأن لايشطوا فى مطالبهم ولا يعتسفوا فى اقتراحاتهم بل أوجب عليهم أن يسلكوا الجادة الموصلة الى مايريدون من الغايات . ومن البين أن القرآن هو المعجزة الخالدة الأبدية التي جاء بها ذلك النبي الأمى عليه الصلاة والسلام حجة بالغة بين يديه ونوراً مبيناً يهدي به الله من اتبع رضوان سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ولذلك نرى القوم كلما اشرأبت نفوسهم الى نزول احدى المعجزات أمرهم الله بتدبر آيات القرآن الكريم . فمن ذلك قوله تعالى (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)

نزل القرآن الكريم ليؤدى ماقصد منه حسب الفطرة البشرية والسنة الآلهية من الهداية من الضلالة والشفاء من الجهالة ومازال القرآن اماماً يتبع وفيصلا يحكم فى النوازل حتى ساد الجهل وأخذ من المسلمين مأخذه فاستعملوا آيات القرآن فى غير ماوضعت له فاتخذوها للتطبب والفتك بالاعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات وتسخير الجن وتوسيع الرزق وليتهم وقفوا عند ذلك الحد بل تراهم تطرفوا واجترؤا على القرآن ومنزله فأولوا القرآن طبقا لاهوائهم وأخرجوا كثيرا من آياته عن معانيها التى تقتضيها لغته وأسلوبه وسياقه أما رأيتهم كيف يفهمون قوله تعالى (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) وقوله (شفاء لما فى الصدور) وقوله (لهم ما يشاؤون عند ربهم) وقوله (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما) وقوله (ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض إئتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين) وقوله (ألم نجعل الارض مهاداً والجبال أوتاداً) الي نحو ذلك من الآيات وان شئت أن تعرف ماأتى به بعض المفسرين فى تفسير هذه الآيات

وأمثالها من الافك المبين والجهل الفاضح فارجع الى ما كتبوا . ولنضرب لك مثلا شيئا مما كتبوه فنقول :

(١) — جاء فى الجزء الثانى عشر من تفسير الطبرى عند الكلام على قوله تعالى (وقيل ياأرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) حديث موضوع في وصف سفينة نوح حيث قال عن ابن جريج أنه قال كانت السفينة أعلاها للطير ووسطها للناس وفى أسفلها السباع وكان طولها فى الجو ثلاثين ذراعا ودفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجب وأرست على الجودى يوم عاشوراء ومرت بالبيت فطافت به سبعا وقد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت اه

(٢) — وجاء فى كثير من التفاسير فى تأويل قوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) — فى سورة الرعد — إن الضمير فى «له» عائد الى من ذكر اسم الله وأن المعقبات الملائكة تتعقب على العبد وذلك أن ملائكة الليل أذا صعدت أعقبتها ملائكة النهار فاذا انقضى النهار صعدت ملائكته ثم أعقبتها ملائكة الليل ورووا فى ذلك حديثاً عن كنانة العدوى قال دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ فقال أخبرنى عن العبد كم معه من ملك قال ملك على يمينك على حسناتك وهو أمين على الذي على الشمال..... وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لله رفعك واذا تجبرت على الله قصمك وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك الا الصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام وملك على فيك لايدع الحية تدخل اليه . وملكان على يمينك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى ينزلون وملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمى وابليس بالنهار وولده بالليل اه

ولا يخفى أن هذا الحديث مكذوب على حضرة النبي على أنه مع ذلك سخيف العبارة ساقطها . وأغرب من ذلك حمل القرآن عليه وتأويله به مع أن سياق الآية لايكاد يحتمله بوجه من الوجوه فان سياق الآية كان فى التكلم على علم الله واحاطته بجميع الكائنات وعلى عظمته وتعاليه المتناهى الذى يغلب معه كل مغالب ولا يقى الانسان دونه أى حافظ اذ قال (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) فالمستخفى بالليل والسارب بالنهار المتخذان لهما حرساً وجلاوزة سواء عند الله فلا الاستخفاء بحاجب المستخفى عن الله ولا الحرس يدفع عن الانسان مايقضى به الله على عباده ثم بينت الآية إن سنة الله فى خلقه ربط الاسباب بمسبباتها فخفاء الاسباب أو كتمانها لايحول دون تحقق نتائجها فان الله الذى جعل ذلك الرباط رباط السببية مطلع على خفايا الامور محيط بما تجنه الضمائر فلا يغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فاذا تحققت أسباب أى قضاء وأراد الله تعالى تحقيق ذلك فلا مرد له وما لهم من دونه من وال فلا ينفع الانسان اذ ذاك حرس كثيف يتعاقب عليه دائما ليقيه شر الحوادث هـــذا مايفهم من الآية وسياقها فعجبا لاؤلئك المفسرين أرادوا أن يؤولوها ذلك التأويل الشاذ فلما لم يساعدهم على ذلك نظم الآية قالوا ان الضمير فى قوله تعالى « له معقبات » يعود على من ذكر اسم الله تعالى وهذا لاأثر له أصلا فى الآية هذا فضلا عما عملوه من تفكيك نظام الآية إذ قطعو الحال من صاحبها وفرقوا بين الاجزاء التى تتألف منها

(٣) — ومن ذلك ماقاله بعضهم فى تأويل قوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها) بسورة القدر — حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم السموات السبع والأرضين السبع كانت له لقمة واحدة أو هو ملك رأسه تحت العرش ورجلاه فى آخر الارض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفى

كل وجه ألف فم .... الى آخر السلسلة المعروفة فانظر الى هذه الخزعبلات التى يحملون عليها كتاب الله تعالى

(٤) — ومن ذلك أيضا ماأتى به كثير من المفسرين فى تأويل قوله تعالى (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) اختلف أهل التأويل فى ذلك فقال بعضهم يمحو الله مايشاء من أمور عباده فيغيره الا الشقاء والسعادة فانهما لايغيران وزاد بعضهم الحياة والموت ثم انقسموا فقال بعضهم ان ذلك فى ليالى القدر . وقال بعضهم انه في ليلة النصف من شعبان . وقال آخرون ان ذلك فى كل ليلة . ففى تفسير ابن جرير عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل يفتح الذكر فى الساعة الاولى الذى لم يره أحد غيره يمحو مايشاء ويثبت مايشاء وقال أيضا ان الله يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل فى الساعة الاولى منهن ينظر فى الكتاب الذى لاينظر فيه أحد غيره فيمحو مايشاء ويثبت مايشاء واذا شئت أن تستقصى ماقالوه فى أمثال هذه الموضوعات فعليك بكتبهم

ولعلك تتطلع نفسك الى تفهم معنى المحو والاثبات هنا فنقول قبل أن نحقق لك معناهما نذكر لك الآية بتمامها ليتجلى لك معناها .

قال تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله لكل أجل كتاب يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) انقسم أهل الكتاب على النبى عليه الصلاة والسلام فمنهم أحزاب كانوا يفرحون بما أنزل عليه من الاحكام كما كان من الأحزاب من ينكر بعضها ويستقبح ما كان يفعله المصطفى صلى الله عليه وسلم من التزوج والأكل والشرب ونحوها من أعمال الدنيا (وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) وكذلك كانوا كلما سألوا المصطفى صلى الله عليه وسلم شيئا من الآيات الخارقة للعادة كاغاضة المياه ونقل الجبال واحياء الموتى لايجيبهم الى شيء من مطالبهم واقتراحاتهم كما قدمنا فكانوا

يستضعفونه وينزلون من شأنه ويعتبرونه عاجزاً لاينبغى له أن يدعى النبوة فرد الله على أولئك القوم وبين لهم أن تلك الأشياء لاتنافى الرسالة فى شىء فقال (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك كآدم وابراهيم وموسى وداود وجعلنا لهم أزواجا وذرية) كما بين أن التصرف فى الكون والاتيان بخوارق العادات ليس الا لله تعالى فقال (وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله) الذى هو خالق كل شىء فهو الذى يمحو مايشاء محوه ويثبت مايشاء اثباته طبقا لما سبق فى علمه القديم كما يدل عليه قوله تعالى (وعنده أم الكتاب) إذ معنى أم الكتاب أصله وأصله هو العلم القديم الذى لاتتعلق قدرة ولا إرادة بشىء إلا طبقاً له. وبالجملة انه لم يقصد من قوله تعالى (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) إلا مجرد تأكيد ما استفيد من قوله قبل ذلك وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله. هذا هو معنى الآية الكريمة فاضرب بغيره عرض الحائط ولاتبال ولأحذرك مما يعتقده بعض الناس مستدلين بهذه الآية من أن الله تعالى قد يغير ماسبق فى علمه الا الشقاء والسعادة فان هذا يفضى الى القول بأن علم الله القديم ينقلب جهلا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. فالحذر الحذر من قراءة الدعاء المشهور المعتاد قراءته فى ليلة النصف من شهر شعبان اذ ورد فيه «اللهم إن كنت كتبتنى عندك فى أم الكتاب شقياً أو محروماً أو مطرودا أو مقترا على فى الرزق فامح اللهم بفضلك شقاوتى وحرمانى الخ» فان معنى ذلك أن الداعى يسأل الله أن يغير ماسبق علمه أزلا الى ماهو من مشتهيات نفس الداعى وان انقلب علم الله بذلك جهلا

عاش النبى ﷺ ما عاش ثم مضى السلف الصالح من بعده فما سمع أن أحدا منهم فهم من القرآن الا ما يدل عليه من حيث هو كتاب عربى مبين ثم خلف من بعدهم خلف افتأتوا على النبى وصالح اتباعه وبرزوا للعالم فيما شاؤا من القحة والدعارة مدعين أنهم أعلم بما فى غضون كتاب الله ممن أنزل عليه ذلك الكتاب فتجلوا للقرآن أعداء في ثياب أصدقاء يلزمونه بما ينكره ويحملونه

مالا يحتمله ويفسرونه طبقا لأهوائهم ويكلفونه من التأويل مايكاد يخرجه عن الغرض الذى أنزل لأجله والله يقول (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيراً ونذيرا) ويقول (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) ويقول (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا) وكذلك يقول (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه) ولقد أتى القرآن بما يضيق المقام عند استقصائه من أمثال تلك الآيات التى تنطق ببيان الغرض الذى جاء له القرآن الكريم

غفل أكبر المفسرين أوجهلوا الغرض الذى أنزل له هذا الكتاب الكريم كما كلت أفهامهم عن ادراك أمثال تلك الآيات الناطقة بما يرمى اليه فقالوا ان القرآن لم يترك فنا من الفنون العلمية الا أتى بشىء من مسائله فجعلوه كتاب جغرافيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرا وادعوا أنه أتي من كل فن بطرف فحملوه من التأويل ماينبوا عنه ثم ذيلوا آياته بأشياء أملاها عليهم جهلهم ووسوست لهم بها شياطينهم فشوهوه وألبسوه غير لباسه وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم براء منه فكانوا أضر عليهم من العدو المبين

لنرجع الى ما ذكره أولئك المفسرون في شرح (ارم ذات العماد وثمود الذين جابو الصخرة بالواد وفرعون ذي الأوتاد) والى ماقالوه فى أمر الزلازل والثور الحامل للأرض ووصف يأجوج ومأجوج وما سيقيمون من الحرب العوان حينما يرمون السماء بالنبال لمحاربة الحق تعالى فيأمر الله السماء أن تمطر عليهم دما الى آخر ماقالوا كما ألفتك الى ماقالوه فى تعليل مايشعر به الانسان من سخونة مياه الابار فى الشتاء وبرودتها فى الصيف اذ عللوا ذلك بأن ليالى الشتاء طويلة ولما كانت الشمس تغرب فتدخل فى جوف الأرض كان تأثيرها فى المياه التى

فى جوف الأرض أثناء الشتاء أكثر من تأثيرها فى أثناء الصيف . هذا بعض ماأتى به أولئك المفسرون ليتمموا به كلام الله تعالى فأضحكوا منهم الصبية والبله فضلا عن العقلاء من الناس كما انهم حملوا غير المسلمين على الاستهزاء بالدين والسخرية بالقرآن الحكيم فلقد رأيت للقرآن ترجمة بالانكليزية يأتى واضعها بما سطر أولئك الجهلة المتعالمون ثم يعقب ذلك بما شاء من الانتقاد والتشهير بدين ذلك كتابه وأولئك أئمته فيالله من الصديق الجاهل

كبر على كثير من الناس القول بأن القرآن كتاب مبين يفهمه كل من يعرف لسانه فجعلوا يحومون حول المعانى البعيدة ليحملوا عليها آيات القرآن . ألم تر إلى الذين ضلوا وأضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين أحدهما باطنى والآخر ظاهرى وادعوا أن الرسول الذى أتى به لم يصل الى ادراك مافيه من المعانى الباطنية مع أنه يقول ما معناه أنا أعلم بكتاب الله تعالى ولو علمت بأعلم منى به لرحلت اليه أو كما قال

أرعنى سمعك أقص عليه أن المتدبر للقرآن يرى أن النبى صلى الله عليه وسلم ما سئل فى شىء مما لم يبعث لأجله إلا صرف السائل عن قصده وتلقاه بغير مايترقب تنبيها الى أنه الأولى بالقصد والأليق بما هو من حدود الرسائل ووظائفهم من الهداية والارشاد وتبليغ الشرائع . ينوه الى ذلك قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) وقوله (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) وقوله (يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها انما أنت منذر من يخشاها) فبين الله فى هذه الآيات أن وظيفة الرسل الانذار وتحذير العالم من تلك الساعة التى هي آتية لاريب فيها وليس وظيفتهم تعيين وقتها ومن ذلك أيضاً قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاتري فيها عوجاً ولا أمتا) تدلك هذه الآية وماسبق على ماقلناه لك آنفا من أن النبى صلى الله عليه وسلم فى اجابته أمثال أولئك السائلين كان يعلمهم أن لايسألوا إلا عما هو من خصيصات الرسالة ومتعلقاتها رجوعا

بهم الى السنة الفطرية

٤ ــ هل أسس الاسلام على السيف ؟

لهج معظم الأوربيين وضعاف العقول من المسلمين بأن الاسلام لم ينتشر ولم ترسخ قدمه فى عالم الوجود إلا لأنه سعى والسيوف أمامه تمهد له السبيل وتذلل بين يديه العظماء وتلجىء المستضعفين الي اعتناقه حقنا لدمائهم وصيانة لأملاكهم وأسبابهم وقد ضربوا الأمثال بما أقام النبي ﷺ من سراياه ومغازيه ثم بما عمل خلفاؤه من بعده على أنهم لو قرؤا القرآن وشيئاً من التاريخ وسيرة النبى ﷺ وعرفوا شيئاً من أخلاق العرب وعاداتهم فى ذلك الوقت لما تطرق ذلك الخطأ الى عقولهم ولا استحوذت عليهم وساوس صدورهم حتى يرموا النبى ﷺ وصالح سلفه بما هم براء منه . نعم أنه لا يسعنى أن أنكر أنه قد وجد من أمراء المسلمين من شوهوا وجه الاسلام ودنسوه بما جنت أيديهم عليه ولكننى أريد أن أتكلم هنا فى الاسلام من حيث هو كما أريد أن آتى على نبذ من تاريخ أسباب غزوات النبى ﷺ وحروبه لترى أنه ﷺ مابدأ أحدا بعدوان فى جميع ما أقامه من الحروب وما يتذكر الا أولو الألباب

لاحاجة لى أن أذكر هنا ما كان عليه فى بدء الدعوة من الانفراد والضعف وما أصابه من أهله وأقاربه من الأذى فان هذا مما لا يرتاب فيه أحد .

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق فجعل النبى يسار بدعوته من يثق بتوقد فكره وتمكن الانصاف من قلبه فلم يسل لتأييد رسالته إلا سيف الهدى والحجة الدامغة فممن آمن به أبو بكر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو ذر الغفاري . ومن السابقين الى الاسـلام خالد بن العاص جاء النبى فقال له الى م تدعو يا محمد فقال (أدعوك الى عبادة الله وحده لاشريك له وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع والاحسان الى والديك

وأن لاتقتل ولدك خشية الفقر وان لاتقرب الفاحشة ماظهر منها وما بطن وأن لاتقتل نفساً حرم الله قتلها الا بالحق وأن لاتقرب مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأن توفى الكيل والميزان بالقسط. وأن تعدل فى قولك ولو كان على ذوى قرباك وأن توفى لمن عاهـدت) فأسلم وهكذا دخل هؤلاء الاشراف فى الاسلام غير مهددين ولا ملجئين ولكن طائعين منصفين مدركين فرق ما كانوا عليه من الضلال وما أتاهم به هذا الدين الحنيف . ولم يدفعهم الى الدخول في الاسلام اذ ذاك لارغبة فى جاه ولا توقع ثروة ولا فقر مدقع فان أكثرهم كانوا أوسع ثروة وأعظم جاها وأقوى عصبية وأنفذ كلمة من ذلك الفرد الذي أطاعوه وتبعوا شرعه واحتملوا الأذى فى تأييده (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله)

ثم جهر النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة فسخرت منه قريش وكانوا يضحكون منه فى مجالسهم وهو مع ذلك لايثنى عزمه ولا يرجع عن تسفيه أحلامهم وتقبيح آلهتهم فأضمروا له العداء والبغضاء ثم جاؤا الى أبى طالب عمه وقالوا له ان لك شأنا وشرفا ومنزلة منا وانا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا فاما أن تكفه أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا فعظم على أبى طالب فراق قومه ولم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه فقال له يا ابن أخى أبق على نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيقه فظن الرسول أن عمه خاذله فقال والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر مافعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه ثم بكى وولى وقد صادف النبى على أثر ذلك من أذى قريش ومناوأتهم واعتسافهم ومؤامراتهم ماخلد فى التاريخ ومن ذلك مارواه البخارى قال (بينما النبى يصلى فى حجر الكعبة اذ أقبل عقبة ابن أبى معيط .فوضع ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال أتقتلون رجلا أن يقول

ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟

ولقد عم الأذى جميع من أسلموا حتى لم يبق أحد الا أصابه منه حظ كبير. ذلك أبو بكر الذى كان فى الجاهلية سيداً شريفا اشتد عليه أذى قريش حتى أجمع رأيه على الهجرة الى الحبشة لولا أن عاقد له ابن الدغنة على أن يعبد الله فى داره فيصلى فيها ماشاء ويقرأ ماشاء ولا يؤذى قريشا بالاستعلاء به خشيه أن تفتن نساؤهم وأبناؤهم فلما ابتنى أبو بكر مسجدا بجوار داره يتعبد فيه أتى ابن الدغنة أبا بكر فقال قد علمت الذى عاقدت الله عليه فاما أن تقتصر على ذلك واما أن ترجع الى ذمتى فانى لاأحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له فقال أبو بكر فانى أردعليك جوارك وأرضى بجوار الله (كما فى البخارى بتصرف)

تفاقم الخطب وأحدقت الفتن بالمسلمين حتى عجزوا عن احتمالها فأشار النبى صلى الله عليه وسلم عليهم بالهجرة الى بلاد الحبشة فهاجر منهم عشرة رجال وخمس نسوة فلما أعيت قريشا الحيل عزموا على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب واخراجهم من مكة والتضيق عليهم حتي يسلموا محمداً صلى الله عليه وسلم للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة فأمر النبى صلى الله عليه وسلم جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة فهاجر معظمهم

ولما رأى النبى صلى الله عليه وسلم من قريش مارأى جعل يخرج فى الأسواق العربية ويعرض نفسه على القبائل ليحموه فكان منهم من يرده رداً جميلا ومنهم من يلقى عليه قولا ثقيلا حتى اذاجاء رؤساء الأوس الى مكة ليحالفوا قريشا على الخزرج جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هل لكم فى خير مما جئتم له أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئاً ثم تلا عليهم القرآن ولم يمض الا قليلا حتى آمن به بعضهم وصدقوه فيما جاء به ثم أخذ عدد المسلمين من الأوس والخزرج يزداد قليلا قليلا فأثار ذلك من حنق قريش وسخطهم حتى لقد جعلوا يغلون في ايذائهم للنبى على ماهو فى كتب السنة الصحيحة . فلما علموا بما حالف الانصار عليه النبى صلى الله عليه وسلم أجمعوا

أمرهم على أن يقتلوه واتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا و يجتمعوا أمام داره فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على محاربة قريش كلهم فألهم الله النبي بجميع مادبر له أعداؤه فخرج هو وصاحبه أبو بكر الى المدينة لينزل فيمن عززوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه . هكذا كان مجمل بدء الدعوة الاسلامية . واننى هنا لواثق أنه لايكاد يوجد من المعارضين من يستطيع التبجح فينكر شيئا من ذلك أو يدعى أن سيفا أعمل فى خلال تلك السنين فما علي إلا أن أسرد لك أسباب ما كان بعد ذلك من الغزوات والسرايا مختارا أشدها وأهمها فى اظهار الدين فأقول : أباح الله لرسوله محاربة من آذاه من كفار قريش وأخرجوه هو وأصحابه من ديارهم فقال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله) وقال (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) فلم يبح الله للنبي مقاتلة غير كفار قريش لما ناله منهم فلما تمالأ على المسلمين غيرهم من قبائل العرب أباح الله للنبى أن يقاتل كل معتد عليه فقال (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وقال (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) فانظر الى ماشرعه الله للمسلمين من القتال أتجده يخالف فى شيء ما يسمى فى هذا الزمان بقتال المدافعة عن النفس . كلا . فلقد نهى الله المسلمين عن الاعتداء ولم يبح لهم الا مقاتلة الظالمين البادئين بمقاتلتهم

شرع الله قتال أهل مكة لما اعتدوا على النبى صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله وأخرجوه من دياره هو وأصحابه لاجل اضعاف شوكتهم وفل غرارهم حتى لا يتمكنوا

من العودة الى محاولة قضاء مآربهم من النبي ﷺ فانه كبر عليهم خروجه ووجوده فيمن حالفوه على النصر والتأييد فكانوا يتحينون الفرص للايقاع به والقضاء على دينه وشيعته فلو تركوا بلا مناوشة لاستفحل أمرهم ولضاق ذرع المسلمين عن مقاومتهم فكان من الحزم وسداد الرأى أن يقعد النبي ﷺ لهم كل مرصد ويضيق عليهم السبل فكان يرسل السرايا ويخرج بنفسه فى المغازي حتى لاتمر عير لقريش الا صادرها وحرم المشركين مما فيها من الامتعة فكان مرة يصيب منهم وتارة يخطئهم . فمن أكبر الغزوات التى انتصر فيها المسلمون غزوة بدر الكبري خرج النبي ﷺ مترصداً أعظم عير لقريش آتية من الشام جمع فيها غالب أموال قريش حتى لم يبق بمكة قرشى ولاقرشية لها مثقال فصاعدا الا بعثت به فى تلك العير

(١) — فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول فى رجاله أرسل الى قريش فنفروا سراعا لحماية تجارتهم وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا فالتقى الجمعان وكان ما كان من نصرة المسلمين على ضعفهم وقلة عددهم (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة)

(٢) — كان يهود المدينة يضمرون البغضاء للمسلمين ويتشوفون أن يصيبهم من أهل مكة مالا قبل لهم به فلما كانت وقعة بدر الكبرى التى أيد الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام والمسلمين نبذوا ماكانوا عاهدوا عليه الرسول فبدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر فلقد قال رؤساؤهم للنبي ﷺ وقد حذرهم عاقبة البغى « لايغرنك يا محمد مالقيت من قومك فانهم لاعلم لهم بالحرب ولئن لقيتنا لتعلمن من تلاقى » فبنقضهم ميثاقهم وبداءتهم بالعداء سار إليهم النبي ﷺ وحاصرهم خمس عشرة ليلة فلما آنسوا من أنفسهم الضعف واستولى على أفئدتهم الرعب سألوا الرسول أن يخلى سبيلهم فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الأموال فقبل منهم ذلك

(٣) — عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الذهاب الى مكة لتأدية نسك العمرة فخرج فى ألف وخمسمائة من أصحابه ومعهم الهدى ايذانا بأنه لم يذهب الى مكة محاربا فساروا حتى نزلوا بأقصى الحديبية ثم أن الرسول اختار عثمان بن عفان سفيرا الى قريش ليعلمهم مقصده فذهب عثمان وبلغ ماحمل فقالت قريش (ان محمدا لايدخلها عنوة أبدا) ثم انهم حبسوه فشاع أن عثمان قتل فقال عليه السلام حينما بلغه هذا الخبر (لانبرح حتى نناجزهم الحرب) وبايع أصحابه على القتال فخافت لذلك قريش فأرسلت سهيل بن عمرو فى طلب الصلح فوضعت الحرب أوزارها على ماتراضوا عليه من الشروط التى منها وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين

(٤) — ثم انصرف النبي والمسلمون قافلون الى المدينة فى تلك السنة وعادوا لقضاء عمرتهم فى العام التالى ثم عمل النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى شروط الصلح فلم يخفر ذمة ولم ينقض عهداً حتى بدأت قريش بالعدوان

ذلك أن قد دخل فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم قبيلة يقال لها خزاعة كما دخل فى عهد قريش قبيلة أخرى يقال لها بكر وكان بين هاتين القبيلتين أضغان كثيرة وتراث قديمة فاتفق أن رجلا من بكر وقف يتغنى ذات يوم بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعى فقام هذا فضربه فأثار ذلك كامن احقاد بكر واستشاطوا غضباً فاستعانوا بقريش على الفتك بقبيلة خزاعة فأمدتهم قريش بالعدة والرجال ثم انقضوا على خزاعة على غرة منهم وقتلوا منهم فأرسلت خزاعة الى النبي صلى الله عليه وسلم تخبره بما جرى من قريش وبكر حليفتها

أما قريش فانها استيقظت فرأت أنها قد نقضت بفعلتها هذه شرائط عقد الصلح الذى تم بينهم وبين المسلمين فندمت على هذه الفارطة التى ارتكبتها بلا ترو ولا تبصر فأرسلت اذ ذاك أبا سفيان زعيمها الى المدينة ليوثق عرى الصلح ويمد فى أجله فخرج حتى جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وعرض عليه ماجاء به الى المدينة

فقال له عليه الصلاة والسلام هل كان من حدث بعد . قال لا . فقال الرسول فنحن على مدتنا الاولى وصلحنا السابق ولم يزد عن ذلك . ومن المعلوم أن قريشا الآن قد اعتبرت محاربة حسبما تقتضيه شروط الصلح السابق وقد شعر بما أضمره النبي ﷺ لقريش فتوسل اليه ببعض وجوه العرب وزعمائها فلم يفلح

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فانه أمر أصحابه أن يتأهبوا للسفر وأخبر أبا بكر بما عزم عليه فقال له أبو بكر أو ليس بينك وبين قريش عهد قال نعم ولكن غدروا ونقضوا ثم استنفروا الاعراب الذين حول المدينة وسار النبى فى عشرة آلاف مقاتل الى مكة حتى اذا وصل اليها أمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة ودخل هو من أعلاها وناد مناديه « الا من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » نعم انه أهدر دم جماعة وان تعلقوا بأستار الكعبة لانه اعتبرهم كما يقال فى هذا العصر « مجرمين سياسيين »

واعلم أنه لم يقاتل فى هذا الفتح إلا جيش خالد بن الوليد ولكن بعد أن تعرضت له قريش ليصدوه عن دخول مكة فقتل منهم أربعة وعشرين رجلا وقتل من جيشه اثنان فكان دخوله مكة عنوة

ثم أخذ النبي عليه الصلاة والسلام يطهر مكة مما كان عليها من الأوثان والأدناس ثم خطب في الناس فبين كثيراً من الأحكام ثم ختم خطبته بقوله تعالى (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير) ومن آدابه ﷺ وشيمه الكريمة ماورد فى كتب السنة الصحيحة من أن رجلا جاء عقب فتح مكة ليبايع النبي عليه الصلاة والسلام فجاء وهو يرتعد خوفا فقال له الرسول « هون عليك فانى لست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد »

(٥) — على أثر هذا الفتح المبين وتدمير عصابة الوثنيين أخذ الناس يدخلون

فى دين الله أفواجا الا بعض قبائل أدركتها حمية الجاهلية الاولى فلقد اجتمعت أشراف هوازن وثقيف وقالوا قدفرغ محمد (صلى الله عليه وسلم) من قتال قومه ولا ناهية له عنا فلنغزه قبل أن يغزونا أما النبى ﷺ فانه لما بلغه خبر استعدادهم لحربه أجمع رأيه على المسير اليهم فخرج فى اثنى عشر ألفاً حتى وصل الى العدو فالتحم الجمعان وذلك يوم حنين أعجب المسلمين فيه كثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً وضاقت عليهم الأرض بما رحبت حتى ولوا مدبرين لولا أن الله أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأيدهم بروح منه فلم ينته القتال حتى جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هى العليا والله عزيز حكيم

هذه هى جلى الغزوات وأقواها فى تأييد الاسلام واعلاء كلمته وتقوية سلطانه . فهل رأيت فى جميع ماقصصته عليك وانه لحق أن النبى بدأ أحداً بعدوان كيف وهذا كتاب الله يقول (لاعدوان الا على الظالمين)

إرجع الى كتب السير وجرد نفسك من شوائب التحيز فهل تجدن مغمز ابرة للشك فيما قصصته عليك ؟ كلا

وخلاصة القول أن البصير بالتاريخ يشهد معنا أن المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يسل فى حياته سيفا لارغام أحد من الناس على الدخول في دينه ولكن الهدى هدى الله يهدى به من يشاء

ما كان للنبى والمؤمنين أن يدعوا الى الله ودينه سالكين طرق العسف والارهاب وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى فى الدعوة كما قال (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن) وقال تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن)

انظر الى ابداع كتاب الله فى الرد على أهل الكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح مع اشتماله على أحسن آداب المحاجة حيث يقول (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب

والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)

٥ — وجه كون دعوة النبى ﷺ عامة لجميع المكلفين

اعتاد الناس أن يقيسوا أحكام الله السماوية بقوانين البشر الوضعية فتراهم يتشدقون بأن الأحكام يجب أن تكون مناسبة للأزمان مختلفة باختلاف أهلها فيراعى فى القوانين والشرائع الأماكن وطبقات العالم ودرجات ارتقائها فى التحضر والفضل والتهذيب ونحوها من الصفات التى تتفاضل فيها الأمم وتتفاوت طبقاتها باعتبارها ثم كأنك بهم وقد طفرت عقولهم فحكموا بأن شرائع الاسلام وسننه جاء به نبى عربى لم يعرف من أحوال الأمم الأخرى الا قليلا جداً كما انه لم يعلم ماسيتوالي بعده من الأمم المختلفة والاحوال المتباينة والعصور التى تكاد تكون متباينة فى مقتضياتها ومطالبها وأحكامها

فكأني بأمثال أولئك القوم قد أقاموا على أنفسهم الحجة بأنهم لايفقهون مايتلي عليهم من كتاب الله تعالى . يسمعون القرآن وانما مثله فيهم كمثل الذي ينعق بما لايسمع الا دعاء ونداء ويرون آياته بأعينهم وانها لاتعمي الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور

فبما بسطت لك هنا من أمر أولئك القوم أريد أن آتيك هنا بوجه كون الدين الاسلامى دين الفطرة البشرية التى فطر الناس عليها فى كل زمان ومكان صالحا لكل أمة وكل جيل مصلحا لكل من استمسك بسببه المتين وعمل بكتابه المبين

اعلم أن دين الله فى كل الأمم واحد لاتختلف أصوله باختلاف الأمم وأحوالها وأزمانها وأمكنتها وانما الذى يختلف باختلاف ذلك هي الاحكام الفرعية يشير الى ذلك قوله تعالي (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من

دون الله) وقوله تعالى (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) الآية

جاء الرسول عليه الصلاة والسلام لتقرير الحق والاعتراف به وتذكير الناس أن يتمسكوا به فما كان له أن يبطل حقا أو ينكر صالحاً أو يجحد نبيا أو يستقبح حسناً ولكنه جاء مؤذناً فينا بأنه قد آمن بما أنزل الله من كتاب وأنه آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله غير مفرق بين أحد من رسله كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام بأن الله أوحى اليه أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وبأن من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً فلم يأت النبي ﷺ ببدع من الشرائع ولكن بما قرره الله من الحق وأوحي به الى أنبيائه من قبل كما قال عز من قائل (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) على اننا نعلم ماتقرر فى الاسلام من أن شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد ناسخ . فترى من جميع ماتقدم أن الاسلام لم يخالف مقتضى الفطرة السليمة فى اعتبار ماسبق من الشرائع والأخذ بما تقرر من النواميس العادلة سواء ورد بها دين ابراهيم أو دين عيسى بن مريم أو غيرهما . نعم ان الاسلام نسخ بعض مافرض الله على الماضين من الكلف الشاقة التى جلبها عليهم عنادهم وظلمهم كما قال تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل) فانهم لم يزالوا كذلك حتى جاء المصطفى عليه الصلاة والسلام حريصاً على المؤمنين رءوفا بهم رحيما لهم فأباح الطيبات من الرزق ولم يكلف نفساً الا وسعها فكان دينه بذلك أكثر الأديان ملاءمة للطباع والعادات والقوى البشرية علي اختلافها ولذا كان عليه السلام خاتم النبيين

ربما قيل كيف ذلك مع أن أكثر الاحكام النظامية والنواميس التعاملية قد وضعها بعد النبى الفقهاء والخلفاء والامراء فلم يحط الاسلام في بدء نشأته

بكل مايلزم البشر من القوانين والاحكام فنقول ان جميع ماوضعه الفقهاء والخلفاء والأمراء من الأحكام انما بنوه على ما أباح لهم الشرع الشريف من الاجتهاد والقياس كما قدروه واعتبروه بالاحكام العامة التى قررها لهم الشرع على ماسنأتى على تفصيله قريباً فكل ماجاء مبيناً على قواعد الدين فهو دين سواء نص عليه الشارع نفسه أواستنبطه أهل الفكر والنظر الصحيح وهذا هووجه كون الدين الاسلامى دين الأبد وختام الأديان ولنأت لك الآن بشىء من قواعد الاسلام لترى منها وجه ما قلناه لك آنفا فتدبره فان للدين كما سترى قواعد أصلية ثابتة تقدر بها الأحكام حسبما تقتضيه الأحوال المختلفة فى الازمان المختلفة بين الامم المختلفة

(١) — الأصل الأول الاجتهاد وأعنى به أن تستنبط الأحكام من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة حسبما تصل اليه الافهام السليمة فكل من يعرف لغة القرآن لاينبغى له بحال ما أن يقلد غيره تقليداً متى قدر على فهمه وفهم الكتب الصحاح فى السنة فلم ينسد ولن ينسد باب الاجتهاد برغم أنف من أرادوا أن يحجروا على العقول البشرية ويقيموا عليها أوصياء من الأولين حتى تسير كما ساروا وتقول بما قالوا فان السلف الصالح رضى الله عنه ما كان مقلداً ولكن تصدى لكتاب الله فعمل بما وصل اليه ادراكه وبلغه جهده ولو كان بعض ذلك خطأ فى الواقع فان الله لم يحرم من الأجر أى مجتهد. نعم انه جعل لمن اجتهد فأخطأ أجرا واحدا ولمن اجتهد فأصاب أجرين. ان أمر انسداد باب الاجتهاد أمر ابتدع بعد انقراض الصدر الأول منه لأسباب. منها انتشار العجمة فى المسلمين وعدم استطاعة كثير منهم وكانوا لايحسنون العربية أن يفهموا القرآن على وجه ومن الأسباب أيضا فيما أظن جهل كثير ممن قالوا بعدم جواز الاجتهاد للقرآن الكريم وعدم معرفتهم أحكامه ولغته والا فكيف عموا عن قوله تعالى (ولقد يسرنا — سهلنا — القرآن للذكر — للتذكر — فهل من مدكر) أى فهل من

طالب علم منه ومتفهم له فيعان عليه أم كيف غفلوا عما قبح الله به الاولياء من المشركين وندد عليهم اذ قلدوا آباءهم وقصروا أنفسهم على محاكاتهم فيما اعتقدوا وفيما عملوا حيث قال (واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباءهم لايعلمون شيئاً ولايهتدون) واذا شئت أن تستقصى ماورد عن الله من تسفيه أحلام المقلدين والتشهير بهم فعليك بقراءة القرآن الكريم فستجد منه مافيه مقنع وما يتذكر الا أولو الالباب

(٢) ــ الاصل الثانى القصد فى الاعمال واقامة مالا يشق على النفوس من التكاليف فلقد طالما نص القرآن الكريم على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها فكل ماليس فى وسع الانسان أن يقوم به فلا تكليف فيه والمراد بالوسع أن يكون العمل بحيث لايجهد فاعله ولايوقعه فى العناء والتعب فان هذا هو مايفهم من التعبير بكلمة وسع التى معناها السعة وعدم الضيق ولقد نهانا الله تعالى عن الغلو فى الدين فقد ورد فى البخارى « لن يشاد الدين أحد الا غلبه » وورد فيه أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئاً من الدجلة والقصد » ومن هنا لا ينبغى لمسلم أن يتغالى فى دينه وأن يتباعد عن المباحات وأن يحمل نفسه فوق طاقتها فان هذا ليس من الدين فى شىء واعلم أن المتغالين فى دينهم أقرب الناس الى العجز عن القيام به واحتمال تكاليفه ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (أحب الاعمال الى الله أدومها وإن قل) وقال (ان المنبت لاأرضا قطع ولا ظهراً أبقى) وقال تعالى (ماجعل عليكم فى الدين من حرج) وقال أيضاً (يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر) ومما يناسب هذا الموضوع نازلة كانت موضوع بحث أهل العلم ومنتحليه فى مصر وذلك لبس البرطلة فلقد هاج وماج بعض مدعى العلم على من قال بحل لبسها للمسلم فسلهم بأبيك كيف لهم أن يتقولوا على الله وينسبوا ذلك لدينه . ان البرطلة ليست لباساً دينيا وانما هى لباس أمم مختلفة الملل والنحل فمنهم النصرانى ومنهم المجوسى ومنهم اليهودى ومنهم العربى

المسلم يسكن بعض الجهات الحارة من صحراء أفريقية وغيرها نعم انها تختلف أشكالها وصورها ولكنها ذات اسم واحد تندرج تحت نوع واحد

فان كان شبهة أولئك القوم انها لم تكن معروفة للنبي ﷺ ولا السلفه الصالح قلنا ان هذا لا يقتضى التحريم فهل رأى النبي ﷺ العمائم التى فوق رؤسنا أو القفاطين التى تتدلى أكمامها أو الجبب (الفرجيات) التى يمكن أن يتخذ منكم أحدها لباس الجسم بتمامه

فليفقه أولئك القوم أنهم يفقهون ما ليس لهم به علم والله تعالى يقول (ولا تقف ماليس لك به علم) ان الطيالسة التى استعملها العلماء فى خلافة العباسيين إنما حاكوا فيها رهبان اليهود وأحبارهم كما أن هذه الجبب الواسعة المستعملة فى مصر انما حاكوا فيها علماء وبطارقة بعض المذاهب النصرانية

واعلم أن من موضوع هذا الباب تحرج كثير من شبيبة المسلمين أن يؤدوا ما فرضه الله عليهم من الصلاة حتى اذا سألتهم فى ذلك قالوا إننا لا يمكننا التحرز من النجس لاسيما قطرات البول وكثيراً مايقضى الانسان حاجته فلا يجد من الماء مايتطهر به . ومنهم من يقول أن من المشقة أن أخلع نعلى وألبسهما عند كل صلاة ولا يمكننى أن أصلى بهما حسبما يفتينا علماء المسلمين لأنه يغلب على الظن عدم سلامتهما من النجاسة التى تكون عادة فى الطرقات . فترى أولئك الفتية يتركون الفريضة التى هى سمة المسلم ومذكرته بالحق تعالى وناهيته عن الفحشاء والمنكر انصياعا لما أفتاهم به أولئك الجهلة المتغالون والدعاة المعطلون

فمن لى أن يرى أحداث المسلمين مارواه البيهقى مرفوعا «اذا جاء أحدكم المسجد فليقلب نعليه فلينظر أفيهما خبث فان وجد فيهما خبثاً فليمسحهما بالارض ثم ليصل فيهما» وما رواه البيهقى أيضا عن أم سلمة «أنها سئلت عن المرأة تطيل ذيلها وتمشى فى المكان القذر فقالت أم سلمة قال رسول الله ﷺ يطهره مابعده» وفى رواية له عن أبى هريرة رضى الله عنه «قلنا يارسول الله إنا نريد

المسجد فنطأ الطريق النجسة فقال النبي عليه الصلاة والسلام (الطرق يطهر بعضها بعضاً » وفى حديث البيهقى مرفوعا « اذا وطىء أحدكم بنعليه فى الأذى فان التراب له طهور » وقد رأى المالكية أن المتعمد فى مذهبهم أن إزالة النجاسة سنة أعنى أنها لاتبطل الصلاة بوجودها وان كانت مكروهة معها . فلم لايصلى ذلك المسلم فى نعليه ، ولم لايصلى وفى سراويله قطرات البول ولم يسهل عليه التحرز منها « ولم لا يصلى المسلم فى بلاد لم يستطع ان يستنجى فيها » أيظنون ان الله يريد بهم العسر مع ان الله يقول فى قرآنه « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

(٣) — الاصل الثالث من أصول الاسلام أنه لاضرر ولاضرار . فلايجوز لمسلم ان يفعل مافيه ضرر لجسمه أو عرضه أوماله كما يجوز له أن يضار غيره فيدخل فى ذلك تكليف الجسم بما لايطيق وشرب المسكر والمقامرة وإيذاء الغير بأى نوع من ضروب الأذى حسبما تعارفه القوم الذين يعيش فيهم كقتل النفس والسرقة والرشوة والخداع والتمويه والتدليس وشهادة الزور وهلم جرا

لعلك اطلعت على ماقرره الفقهاء من إباحة التخلف عن الجمعة لأسباب كثيرة منها أن يكون بالانسان بخر أو رائحة ثوم أو بصل أوبه مرض معد كالجذام والبرص ونحوهما من كل مايضر أو تشمئز منه نفوس المصلين ولايخفى أن هذا الأصل ينبنى عليه كثير من الأحكام الفرعية والنوازل اليومية فى كل عصر

(٤) — الأصل الرابع سد الذرائع واعطاء الوسائل احكام المقاصد والغايات. فكل ماأفضى الى مباح فهو مباح وكل ماأوصل بك الى مكروه فهو مكروه وكل ما أوقعك فى محرم فهو محرم فكلما أردت ان تحكم على وسيلة بحكم فقدرها بمعيار غايتها . ولنضرب لك مثلا ماجاء به الشرع من اباحة تعدد الزوجات فان هذه الاباحة قد قيدها الشرع بقيود منها العدل ومنها أن لا يفضى التزوج الى ضرر أو محرم أو فساد فاذا قسنا ذلك بما يحصل عادة على أثر التعدد من

الشقاق وافساد ذات البين واغفال الرجل أمر أولاد احدى الزوجات ارضاء لغيرها أو قسوة عليهم وايذائه لهم فاذا قدرنا تلك الوسيلة وهى تعدد الزوجات بما تفضى اليه من المضار يمكن الحكم بأنه لايباح للرجل تزوج أكثر من واحدة الا لمن أمكنه أن يقوم بجميع ماشرط عليه من العدل وعدم المضارة والفساد (واعلم) أن من أهم أصول الدين الحنيف اعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به فاذا غلب على الظن أن العمل مفض الى محرم أو مكروه فانه يعطى حكم غايته فيحرم أو يكره فلا يعترض علينا هنا بأن أمر المضاراة مع تعدد الزوجات ليس بالأمر المحقق حتى ينبنى عليه تحريم ذلك على الرجال فاننا على تسليم أنه غير محقق جدلا لايسعنا أن ننكر أنه أمر غالب على الظن حتى يوشك أن يكون يقينا

(٥) — الاصل الخامس من أصول الاسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . وأولى بى هنا أن أقتطف ما جاء لاستاذنا الحكيم الشيخ محمد عبده فى مقالات الاسلام والنصرانية اذ قال ما نصه

« اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لاننظر اليه على أنه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما يدل عليه العقل وبقى فى النظر طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الامر الى الله فى فهمه والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل وبهذا الاصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدي العقل كل سبيل وأزيل من امامه جميع العقبات، واتسع له المجال الى غير حد فماذا عسى يبلغ اليه نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ماهو أبعد من هذا وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم اذا لم يسعهم هذا الفضاء ان لم يكن فى هذا متسعا لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء بأجرامها وأبعادها » اه

ولا يخفى أن تقرير هذا الأصل فى الاسلام يدلك دلالة واضحة على أن الدين المحمدى لم يلزم العقل أن يخالف مايقتضيه نظره وبحثه بل أنه فوق ذلك قدمه فى العمل والاعتقاد على ظاهر المنقول

اباحة التجمل بأنواع الزينة

قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى كتاب الاسلام والنصرانية مانصه :

أباح الاسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية والوقوف عند الحدود الشرعية والمحافظة على صفات الرجولية . جاء فى الكتاب العزيز (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون قل انما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) ثم عد الله النعم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنا بها فضله ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره كما قال (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ان ربكم لرؤف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالاتعلمون) ثم قال (وهوالذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) اه

(٧) ـ الأصل السابع وجوب امتثال ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم شرعا دون ماذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأى

(اعلم) أنه قد تقدم لنا بيان أن وظيفة الرسل ارشاد العالم الى طرق النجاح والاستقامة واقامة العدل فيهم وتربيتهم على الاخلاق الفاضلة والشيم الكريمة وبينا أيضاً أن الاسلام يقدم العمل بمقتضى العقل على ظاهر الشرع عند التعارض وقد علمنا النبي ﷺ ذلك وبينه بأجلى عبارة وأوضحها كما روته الكتب الصحيحة فلنأتك هنا بشيء مما ورد فيها

(روى) مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رءوس النخل فقال مايصنع هؤلاء فقال يلقحون يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح فقال رسول الله ﷺ ما أظن يغنى ذلك شيئاً قالوا فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فاني انما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فاني لن أكذب على الله عز وجل

(وروي) مسلم أيضا عن رافع بن خديج قال قدم النبي ﷺ المدينة وهم يأبرون النخل فقال ماتصنعون قالوا كنا نصنعه قال لعلكم لولم تفعلوا كان خيراً فتركوه فنقصت قال فذكروا ذلك له فقال انما أنا بشر اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر

(وروى) أيضا عن أنس أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون فقال لو لم تفعلوا لصلح قال فخرج شيصاً فمر بهم فقال مالنخلكم قالوا قلت كذا وكذا قال أنتم أعلم بأمور دنياكم

كأني بك ترى ماحكم به النبي ﷺ على نفسه وهو سيد المنصفين صرح لك الرسول بأنه انما هو بشر وان أهل كل حرفة أو صناعة أدرى بمسائلها وبخفاياها من غيرهم وان عصمة الرسل انما تجب فيما إذا بلغوا عن الله شيئا من شرائعه ونواميسه ومن هنا نعلم انه لايجب الاخذ بما ورد عن النبي ﷺ من أمور الدنيا وأحوالها وحرفها وطبها وصنائعها لان هذا ليس مما يوحى به اليه من الشرائع

(٨) - الاصل الثامن المساواة بين المسلمين فى الاحكام وكذا بينهم وبين جميع من لهم ذمة وعهد فان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم فلا يفضل أحد أحداً فى اعتبار الشرع الا بالتقوى والعمل الصالح (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) فقد جعل الله الغنى والفقير والمأمور والأمير والعزيز والحقير سواء فى أحكامه سواء فى ذلك الأحكام الدنيوية والأخروية واعتبر ذلك بصيغ العموم التى تراها فى غير مواضع من القرآن الكريم نحو قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ومن الغريب أن الفقهاء الذين يدعون فهم كلام الله ويظهرون للعالم بسبحهم وسواد موضع السجود من جباههم طالما حابوا الأمراء وتأولوا كتاب الله بما يوافق أغراضهم حرصاً منهم على استرضاء من لا يضرون ولا ينفعون راضين بما سخط الله عليهم إذ فرقوا دينهم وكانوا شيعاً فشحنوا كتبهم بما تضارب من الاقوال وخالفوا أمر القرآن كما فى قوله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءتهم البينات) وقال تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء) وقال تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) واذا أردت أن تأتى علي ماورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الاتفاق وعدم الفشل والاختلاف فعليك بكتب السنة الصحيحة

(٩) الأصل التاسع (أن لاتزر وازرة وزر أخري) ففي سورة الطور (كل امرىء بما كسب رهين) وفى سورة المدثر (كل نفس بما كسبت رهينة) وقال تعالى (ولاتزر وازرة وزر أخرى) وفى سورة النجم (أن لاتزر وازرة وزر أخري وأن ليس للانسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى)

ولا يقال أن من أحكام الشريعة مالا يقتصر على الجانى كما فى دية القتيل فانها على عاقلة القاتل وكما يؤخذ من قوله تعالي (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لانا نقول ان أمر الدية إنما ألزمت بها العاقلة فى الشعوب

التى لها عصبية قائمة ووحدة وعهد بحيث انهم يكونون يداً واحدة على من سواهم فاذا أصاب أحدهم شيء تعاهد الباقى على الأخذ بثاره أو المطالبة بديته كما هو الشأن بين البدو وكثير من العرب حتى الآن ولذلك تجد الفقهاء ينصون على أنه لاعاقلة فى الأمم التى لاتتضامن قبائلها كالفرس والفرنجة والمصريين وغيرهم من الأمم التى لاأثر فيها لتلك اللحمة التى تجعل الحى أو البطن أو القبيلة كأنها رجل واحده فأخذهم الشرع كما أخذ لهم وانتقم منهم كما انتقم لهم وهذا من الوجوه التى تبين لك كيف جاء الاسلام مطابقا للأحوال البشرية ملائما لها على اختلافها

(١٠) الأصل العاشر أن جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الامام أو من ينصبه من القضاة للفصل بين الناس طبقا لما يقتضيه العرف العام كما أن من أصوله جواز التحكيم

واعلم أن الشرع الشريف قد حدد بعض العقوبات كجزاء القتل والسرقة ونحوهما وهى قليلة جداً بالنسبة لماترك الشارع أمر تحديده الى الحكام ونوابهم فقد أجمع الأئمة على أن التعزير مشروع فى كل جناية لاحد فيها ولا كفارة وجوز الامام مالك للامام الحاكم أن يبلغ بالتعزير أعلى درجات الحدود المقدرة

أما التحكيم فقد أجازه الشارع في الأصول المالية وذلك أن يحكم رجلان بينهما خلاف رجلا من أهل النظر والرأى للفصل فيما شجر بينهما وقد ذهب بعضهم الى اعتبار قول الحكم أمرا مقضياً لايتوقف في تقرره وثبوته على أن يقرره قاض شرعى ولا أمير ولا حاكم

(١١) الأصل الحادى عشر تقدير كثير من الأحكام بما تعورف بين الناس ولايخفى أن هذا الاصل قد أوسع دائرة الاحكام الشرعية حتى وسعت تقريبا جميع النوازل على تغاير أشكالها وتباين أحوال أربابها فمن ذلك أمر النفقات الزوجية فانه يراعى فى تقديرها عند الحكم بتقريرها حالة الزوجين فرب نفقة تلائم زوجة على أنها

لا تلائم أخرى وقد كثر التعبير بكلمة (المعروف) و(العرف) فى القرآن العزيز وعلق عليهما تقرير كثير من الأحكام ومن البديهى أنه لا معنى للمعروف والعرف الا ما كان متعارفا مألوفاً غير مستنكر كما أن المنكر هو ما لا يجرى به عرف وألفة فمن الآيات المحتوية عليها قوله تعالى (طاعة وقول معروف) وقوله (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) وقوله (إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس) وقوله (وعاشروهن بالمعروف) وقوله تعالى (فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) وقوله (وأتمروا بينكم بمعروف) وقوله (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) وقوله (وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) وقوله فى شأن الاوصياء (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) فتري فى هذه الآيات وكثيراً غيرها أن الله تعالى قد فوض أمر تقدير كثير من المعاملات الى ما جرى به العرف والعادة من غير تقييد بأهل مكة أو أهل المدينة أو غيرهما بل أطلق الأمر اطلاقا ولا ريب أن العرف يختلف باختلاف أهله وطبقاتهم وما اعتادوه بينهم حسبما يقتضيه الزمان والمكان ولذا كان من القصور تعرض بعض من الفقهاء الى تحديد مثل متعة المطلقة أو نفقة الزوجة وتقدير كثير من الأحكام بما جرى عليه عرف أهل المدينة المنورة محتجين بعلمهم وأنهم أعلم الناس بما مات عنه النبى صلى الله عليه وسلم كما أن من جمود القريحة وقصور النظر تفسير هذه الكلمات بغير ما يتبادر منها فان هذا تخريج للكتاب العربى المبين على غير ما أريد منه ومما يناسب هذا المقام أن القرآن قد أتى بألفاظ أخرى عامة لتكون صالحة للحمل على ما يناسبها من النوازل والأحوال فمن ذلك كلمات «الصالحين» «والصالحات» و«صالحا» فى كثير من الآيات فان المراد من مادة الصلاح هنا ما ليس سوء كما يؤخذ من قوله تعالى (خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً) فان هذه الآية ناطقة بأن كل عمل سيء فهو غير صالح وان كل مسيء فهو غير صالح وأنه لا اصلاح

فى سوء فيدخل فى ذلك الملك الجائر والحاكم الذى أغفل أمر دولته حتى تمكن الضعف منها وجرى الفساد فى عروقها وتمشى الخلل فى أطرافها حتى أصبحت لاتزداد الا نقصاً ولا تعظم الا فساداً فلا جرم أن مثل هذا الحاكم لا شائبة صلاح فيه ولو قطع الليل تسبيحاً وقرآناً ومن هنا فسر أستاذنا قوله تعالى (ان الأرض يرثها عبادى الصالحون) بأن المراد الصالحون لعمارتها بأن امتثلوا أمر الله فأعدوا لانفسهم مااستطاعوا من القوة وأحسنوا الى أنفسهم فكاتفوا الأمم فى الأخذ بوسائل القوة والجد فلم يلتمسوا المسببات الا من أسبابها ولم يأتوا البيوت الامن أبوابها

ومما ينخرط فى هذا الباب خطأ كثير من المسلمين فى فهم التوكل الذي حض عليه القرآن غير مرة اذ قالوا أن التوكل هو تفويض الامر الى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الاسباب المألوفة ثم أن منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلغة من العيش الخشن ولم يستزد حتى مات . ومنهم من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق فظن أن من يذكر اسم الوهاب كذا كذا مرة وهبه الله من المال مايزيد عن حاجاته ومن قرأ (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) كفاه الله مؤنة السعى لطلب الرزق من معاهده العادية

ولقد كثر هؤلاء فى المسلمين فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم الهمم وأزال الله عنهم كثيراً من النعم وان الله لايظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون

نددت الأمم الغربية وكثير من الشرقيين بالاسلام والمسلمين لما نزل بهم من الضعف وانحلال العقدة والفشل وزعموا أن منشأ ذلك هو أصول الدين لاسلامى محتجين بأعمال أولئك الطوائف من المسلمين وبما كذبوا على الله فى تاويل آياته الكريمة نحو (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) ونحو (انى توكلت على الله ربى وربكم) ونحو (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ونحو ماورد

فى الصحيح من قوله ﷺ . لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا .

انى لايسعنى هنا أن أفند جميع ماقيل فى هذا المقام لضيقه ولكن حسبى أن أنبهك الى أن الاستدلال على فساد هذا الدين بما أصاب أهله حجة داحضة وبرهان واهن فان نظرة قليلة فيما مضى من تاريخ المسلمين يوم كانوا متوكلين على الله تعالى تلجم هؤلاء المتقولين على الاسلام وتلزمهم الحجة بأن ماطرأ على المسلمين لم يصبهم الا بعد أن تركوا التوكل على الله فلم يعملوا بما أرشدهم اليه من وجوب الأخذ بالأسباب العادية فانه سبحانه وتعالى خلق الاسباب والمسببات وخلق مابينهما من لحمة السببية فالتماس تلك الاسباب لاينافى التوكل فى شىء بل أنه نفس التوكل وماتفسير أولئك الناس التوكل بالتفويض المطلق والتقاعد عن الكسب والتحصيل لما أفضى بهم الي الاضمحلال فانما منشؤه الجهل بلغة القرآن الكريم

ذلك الرسول وهو سيد المتوكلين يرشدنا بقرآنه وبجميع أعماله الى أن لكل شىء سببا لا يمكن الحصول عليه الا باتخاذ ذلك السبب أوماسمعت قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ونحو (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) الى غير ذلك من الآيات

على أنك لو تأملت قليلا فى قوله ﷺ . لرزقكم كما يرزق الطير . الحديث لتجلى لك الأمر واضحاً لالبس فيه فان النبى ﷺ لم يقل — لرزقكم كما يرزق الطير تمكث فى أوكارها والله يرسل اليها أغذيتها — بل قال تغدو خماصا وتروح بطانا

وفى صحيح البخارى ، عن على رضى الله تعالى عنه قال كنا جلوسا مع النبى ﷺ ومعه عود ينكث به الارض وقال مامنكم من أحد الا وقد كتب مقعده

من النار أو من الجنة فقال رجل من القوم ألا نتكل على كتابنا وندع العمل يارسول الله قال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى)

على أن الله سبحانه وتعالى بين لنا ضرورة علاقة المسببات بأسبابها صراحة وأنها من الامور الفطرية التى فطرت الممكنات عليها فقال فى الكتاب العزيز (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) ومن ذلك أيضا قوله تعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا «أى أكثرنا» مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) فليتق الله المسلمون فى دينهم وليتباعدوا به عن النقائص التى شوهوه بها وعرضوه بسببها الى طعن الطاعنين وغلو الآفكين

والخلاصة أن الدين الاسلامى لما احتوي عليه من تلك القواعد الكلية والأصول العامة وأشباهها جاء صالحاً لان يبتغي بواسطته كل خير فى كل زمان ومكان ومن هنا يتضح لك جليا وجه كون الرسول عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وأن شرعه خاتم الشرائع الالهية كما أنه لم يخالف فى شيء من أصوله وقواعده سنن الله الفطرية التى فطر العالم عليها ولذلك لاحرج علينا فى تسميته «دين الفطرة» وبعد فاعلم أن هناك بعض أحكام جاء بها الشرع فكانت مطعن الجاهلين من الأمم قصار النظر فرأينا أن نأتي عليها هنا تتميما للغرض الذى وضعنا له هذه العجالة الا أننا نريد قبل ذلك أن نأتيك بما ورد فى القرآن الكريم من صفات المؤمنين وما يجب أن يكونوا عليه وأكل اليك بعد ذلك الحكم فى اعتبار مؤمنى هذا الزمان والله يوفقك الى سبيل الرشاد

(١) قال تعالى فى سورة المائدة خطابا للمؤمنين (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله) أى لايحملنكم بغض قوم صدوكم

عن الدخول فى المسجد الحرام علي أن تعتدوا عليهم بل يجب عليكم العدل كما يجب عليكم أن تتعاونوا على الاحسان واتقاء مايسخط الله من مخالفة أوامره وفى معنى ذلك قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى) فان الله يأمرنا هنا أن لانطيع ماتكنه صدورنا من بغض أحد على الاعتداء عليه بل يجب أن يوفى كل ذى حق حقه وأن تقدر المعاملة بمعيار العدل فانه أقرب للتقوى

(٢) وجاء فى سورة النور (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) نزلت هذه الآية فى قوم ادعوا أنهم مؤمنون مذعنون لقضاء الله وأحكامه حتى اذا دعوا الى شريعته لتفصل بينهم ألقى الشيطان فى ضمائرهم انهم ربما ظلموا فأخذتهم العزة بالاثم فأعرضوا عن أحكام الله وهم ظالمون ولكن اذا كان لهم الحق جاؤا الى المحاكم سراعا مذعنين وقد بين الله تعالى هنا أن تلك ليست من صفات المؤمنين فى شىء وما كان للمؤمنين الا أن يسمعوا ويطيعوا وينصاعوا الى قضاء الله وأحكامه سواء كانوا ظالمين أو مظلومين

(٣) وجاء فى افتتاح سورة المؤمنون (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون) — الى أن قال — (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون) فليت شعرى كيف يكون لمؤمنى هذا الزمان أن يتبجحوا بأنهم فى اعتبار الشرع مؤمنون مع أن الله تعالى لم يصف المؤمنين بأنهم الذين عن صلاتهم لاهون والذين هم على اللغو مقبلون والذين هم للزكاة

مانعون والذين هم لشهواتهم مرضون والذين هم لاماناتهم وعهدهم خائنون

(٤) — وجاء فى سورة الانفال (انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) إلى أن قال (أولئك هم المؤمنون حقا)

(٥) — وفى سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) الى أن قال (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) فانظر كيف وصف المؤمنين بما وصف وانظر الى استعمال الحصر هنا فى قوله (انما) ثم تأكيده ذلك بقوله (أولئك هم الصادقون)

(٦) وجاء فى سورة الممتحنة (ياأيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن) يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن ليس الايمان مجرد النطق بالشهادة والمبايعة علي أن محمداً رسول الله فان هذا لايكفى ولقد بين الله في هذه الآية البيعة التى يكون بها المؤمن مؤمنا فتدبرها حتى تعلم مبلغ الايمان الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم. فبأبيك أيها المؤمن أتجد فيما وصف الله به المؤمنين اتخاذ المسابح واطالة اللحي واختضاب الشعر وتحديب الظهر وملازمة الزوايا. ألا ان الويل كل الويل لمن حرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به

الخلاصة: ان من آثار الايمان القلبي الصادق اقامة ماوقع الايمان به وملازمة حدوده ومخالفة وساوس الصدور فمتى رأيت من ينقاد الى شيطانه ويتكل على غير ربه ويحارب شريعته فاعلم أنه غير مؤمن أو مارأيت ماقاله تعالى فى قرآنه الكريم (أنه - أى الشيطان - ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) فكل من وجدت للشيطان سبيلا عليه فاعلم أنه غير مؤمن

أفيحسب أولئك الضالون أنهم على شيء . وقد جاء فى البخارى عن سفيان بن عيينة قال مافى القرآن أشد على من قوله تعالى (ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم) - أي القرآن - ومعنى اقامة هذه الكتب امتثال جميع مافيها والاتيان به على وجهه فان جاء العمل دون ذلك فانه لايسمى اقامة لما حوته تلك الكتب الشريفة من الاحكام فكيف لأحد بعد ذلك أن يدعى أنه على شيء من الايمان بالله وكتبه ورسله حتى يمتثل مافيها ومن هنا يتضح أن الايمان الصادق يستدعى الانقياد والعمل وهذا والله أعلم سر ماروواه البخارى فى صحيحه من قوله عليه الصلاة والسلام « لا يزني الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »

قال القسطلانى ـــ الايمان هو التصديق بالقلب والاعتراف باللسان وتقرره الأعمال الصالحة واجتناب المناهي فاذا زنى أو شرب الخمر أو سرق ذهب نوره وبقى فى الظلمة فان تاب رجع اليه اهـ - وأمثال ذلك فى الكتاب الكريم والسنة كثير ولكنها لاتعمى الأبصار

هذا والمستقرىء لعبارات القرآن الكريم قلما يجد فعلا أو وصفاً مشتقاً من الايمان الا وهو مشفوع بعمل الصالحات فمن ذلك قوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقوله (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) وهلم جرا . يريد الله بذلك وهو أعلم أن يوقظ العقول الى أن مجرد معنى الايمان فى اللغة أى الاعتقاد لا يكفى فى إلحاق صاحبه بفئة المؤمنين حتى يقرن اعتقاده بصالح الاعمال . واعلم أن الله تعالى قد ضمن الامن والهداية لمن لم يشب إيمانه بظلم ولا جور فقال (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون) ومن هنا نعلم أن الايمان لاينجى صاحبه من النوازل والمصائب حتى يقرن كما قلنا بالعمل الصالح . ولنا من نوازل هذا الزمان أصدق برهان وأفصح ترجمان فليقصر أولئك الاخسرون أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون

أنهم يحسنون صنعا

٦ - الرق فى الاسلام ومطابقته لمقتضى الفطرة

تمهيد — كانت القوانين في الازمان السالفة غالبامن الاوضاع البشرية فكان يسن الفرد أوالافراد ماشاؤا من النواميس التى لم يراعوا فيها عدلا ولا نصفة ولا مساواة بين أفراد الانسان فيما لهم وما عليهم.

كان محض ارادة القوى وسلطانه هوالقانون والسنن التى يسارعلى مقتضاها فكان عدم تساوى الافراد فى القوى الجسمية والعقلية الذى اقتضته سنة الكائنات الحيوية هو منشأ تسخير القوى للضعيف وغلبته عليه حتى أفضى ذلك بعد الى وجود ناموس عادى اقتضى أن يكون ثمة مالك ومملوك وقاهر ومقهور

ان استخدام شخص لآخر واستمتاعه بقواه الجسمية بلا أجرهو ولاريب أساس الاسترقاق الذى نشأ مع نشأة الانسان فان من استقرأ التاريخ وجد أنه لايكاد يخلو عصر من العصور من وجوده فى أهله وجـدت أجرامه فى كل جاهلية ثم تعدتها الى ما كان معهامن الامم المتحضرة وبقيت فيها حتي بعدانقضاء الحاجة اليهوزوالها أصلا فلقدعرف الاسترقاق في اليهودية واليونان والرومانيين كما عرف بين قدماء الالمان ولقد أفرط الأخيرون فى استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل فى ذلك

ولقد وجد عنـد اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق. أحدهما استرقاق بعض أفراد منهم لسبب ارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة شرعا أو فى دين عليه وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد مضى ست سنوات عليه في خدمة من هو فى ملكه الا اذا فضل البقاء رقيقا . والنوع الآخر استرقاق غير اليهود ممن قضى عليهم أن يصيبهم شيء من عسف اليهود وحروبهم التى كانوا يقيمونها بلا مسوغ سوى الشره على السيادة وارضاء نفوسهم الخبيثة بما شاءت من الظلم

فكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع ويعاملونهم أقبح من معاملة الحيوانات العجم سواء فى ذلك العبيد المستخدمة فى المنازل وعبيد الحقول والمزارع فانهم كانوا يقضون حياتهم مبغضين مهينين معزولين محقرين مسخرين ثم جاء المسيح عليه السلام فلم يمنع الاسترقاق ولم يضع حدودا تراعى ولا وسيلة تؤدي يوما ما الى نسخه أو تقليله نعم انه جاء ببعض كلمات تتعلق بعدم طاعة الرقيق وببعض نصائح للسادة ليمكنوا الرقيق من تلقي ماجاء به المسيح عليه السلام من قواعد دينه على أن كثيراً من الأمم المسيحية كانوا أشره الناس على اتخاذ الرقيق وأقساهم فى معاملته

انتشر الاسترقاق بين الرومان منذ نشأتهم الاولى من غير تفريق بين من كان رومانيا أو أجنبيا فكانوا يملكونهم اما بحرب أو شراء أو اختطاف ولا يعتبرونهم إلا متاعا ولقد تغالوا فى السيطرة عليهم فلقد كان للسيد أن يتصرف فى عبده حتى كان له أن يقتله نعم انه قد هذب هذا القانون بعد حتى خف فى الجملة على الارقاء أعباء ما كانوا يحتملون ولكنهم مع ذلك كانوا تحت سلطة ساداتهم المطلقة فلقد كان لأمراء الرومان وأشرافهم الالوف من الارقاء يستخدمونهم فيما شاؤا ويوقعون بهم من الآلام ماشاؤا غير مسؤلين عما فعلوا

ان دخول الدين المسيحى فى أوروبا لم يقلل من الاسترقاق إلا من جهة واحدة . ذلك أن الرقيق كان يصير حراً بالرهبانية وانقطاعه الى خدمة الدين على شرط أن لايظهر له سيد يدعيه في خلال ثلاث سنوات . أما من الجهات الاخرى فان الاسترقاق بين مسيحى أوروبا لم يكن بأخف بطشا ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس . ولقدجاء فى جملة قوانينهم المدنية ان الاسترقاق من الأمور الطبيعية كما انها قدرت أثمان العبيد واعتبرت فى تقديرها مايحسنه الرقيق من المهن والأعمال ومنها عدم اباحة التزاوج بين الارقاء ولا بينهم وبين الأحرار وقد قدر القانون أشد العقوبات صرامة فيما اذا تزوج الرقيق حرة

فقضى على الحرة المتزوجة بالعبد بالقتل وقضى على الزوج أن يحرق حيا . كان ذلك حال الاسترقاق فى أوربا فى القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام

فلما تقوضت أركان المملكة الرومانية وأسست على أنقاضها المملكتان الشرقية والغربية لم يقف أمر الاسترقاق الى الحد الذى كان مألوفا عند سلفهم بل كان لأشراف الأمتين وأمرائهما القول الفصل والرأى الأعلى والكلمة النافذة فى الفلاحين الذين تحت أيديهم فكانوا ملاكهم وحماتهم وسادتهم وحكامهم فلم يكن فى ذلك الوقت من هو أرقى منهم حكمة وأعلى سلطاناً سوي نفس الحكومة التى قلما وضعت بين المالك والمملوك شيئا من الحدود

على أن الكنائس فى أوروبا قد اتخذت الارقاء وأباحت لغيرها اتخاذهم كما أن كثيرا من الناس كانوا يذهبون الى استحسان ذلك واعتباره من أحسن الوسائل لمنع الناس من السؤال ولقطع دابر السارقين وقطاع الطرق (واعلم) أن أقبح أنواع الاسترقاق ما كان فى أمريكا الشمالية ولم يزل فاشيا فيها حتى كانت الحروب الدينية التى تأججت نارها فى سنة ١٨٦٥ الميلادية

نحا كثير من الامريكيين نحو ما كان عند الامم السالفه من اليهود والفرس والرومان على ماهم عليه من العلم الغزير والتحضر الذى لم يسبقوا اليه فكان الامريكى الأبيض النصراني يملك الامة السوداء ويولدها البنين على أنه مع ذلك لايعتبرها أم ولده كما فعل الاسلام بل كان لابنه الابيض أن يبيعها ويبيع ذريتها الذين هم أخوته من صلب أبيه

وبالجملة يمكن الحكم بأن الدين النصرانى لم يأت بما يقطع دابر الاسترقاق أو ينافيه كما أن الامم المسيحية على اختلافها وتباين مشاربها كانت لاتبالى أن تسترق من شاءت وأن تستخدم الرقيق كيف شاءت وتعامله كما شاءت ولم يزالوا كذلك حتى انتشر أمر التعليم فيهم فهذب من نفوسهم وأضعف من قسوتهم فتعاهدوا هم وغيرهم من الامم المتحضرة على حماية نوع الانسان والحيلولة بين

أفرادهم أن يسيطر بعضهم على بعض الا بقدر ماتقتضيه النواميس الشرعية على اننا شاهدنا بأنفسنا أحوالا استبيح فيها الاسترقاق بلا مسوغ عادل بل روعى فيها مقتضيات النظام . فمن ذلك أن الحكومتين المصرية والانكليزية افتتحتا حديثا بلاد السودان المصرى فهم العبيد الذين كانوا هناك بمغادرة ساداتهم لعلمهم أن الحكومات النظامية المتحضرة هى حامية الحرية ومؤيدتها فلما رأت الأمة الفاتحة أن هذا لابدأن يفضى الى تعطيل الأعمال وارتباك الأحوال وبوار الحقول والمزارع أقرت ما كان على ما كان وجارت أحكام الزمان والمكان

وإذ قد فرغنا من بعض المقدمات التمهيدية فدونك مافعل الاسلام فى الرقيق والاسترقاق

(١) سوى الاسلام بين الأمم من غير اعتبار اختلاف أصنافها وألوانها فسوى بين الأبيض والأسود والبدوى والمتحضر والرعايا والمرعيين والرجال والنساء والمسلمين واليهود والنصارى ماداموا فى سلم

أنظر الى المسلمين وهم فى المسجد يؤدون فريضة الصلاة أو فى مكة وهم يحجون البيت الكريم أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام أفتجد فيهم من مقدم ومؤخر أو من فاضل ومفضول كيف والله تعالى جعل المؤمنين أخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتا إلا بقدر مايتفاضلون به من الحق فلقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع

« أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولايحل لامريء مال أخيه الا عن طيب نفس فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فاني قد تركت فيكم ما أن أخذتم به لن تضلوا بعدي — كتاب الله — أيها الناس أن ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ان أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربى فضل على عجمى الابالتقوى»

أين هذا مما يفعله أهل أمريكا حتى الآن وهم فى مقدمة الامم حضارة وعلما ؟

ازدرى البيض منهم السود وامتهنوهم لسواد ألوانهم وتجنبوهم وحرموهم كثيراً من المزايا التى استمتع بها البيض ولطالما نشرت الجرائد مايفعلون بهم من الفتك والمقت والتجافى عن مخالطتهم حتى لقد خصصوا لهم فى مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم لايجوز لهم أن يتجاوزوها الى غيرها

زعم كثير من الناس لاسيما من غير المسلمين أن الاسلام أباح للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض مستدلين على ذلك بما يفعل النخاسون من أهل البادية وأهل السودان وكثير من الاتراك وقد تقدم لنا أنه لاينبغى الاستدلال على صحة الدين أو فساده بما يفعل أهله فان هذا من العبث الذي ينبغى أن تصان عقول العقلاء عنه

ان الشرع لايبيح أن يسترق مسلم أصلا ثم أنه لايبيح بعد ذلك الااسترقاق أسرى حرب شرعية لم تقم إلا لاعلاء كلمة الله تعالى مراعي فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم . فمن هنا يؤخذ أن أسرى الحروب التى أقامها كثير من أمراء المسلمين وخلفائهم لالغرض سوى النهب والسلب والبطش مع العدوان على الغير لايجوز استرقاقهم بحال سواء كانوا مسلمين أو غيرهم كتابيين أو وثنيين أو مجوسا

أما استرقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب كعبدة الأوثان فقال مالك والشافعى وأحمد فى احدي روايتيه ان ذلك لايجوز مطلقا فماذا تري فيمن يذهبون الى الصحارى ويختطفون ماوصلت اليه أيديهم من السودان وغيرهم ثم يجلبونهم كما يجلبون المتاع فيعرضونهم فى الاسواق عرض الحيوانات العجم وكثير منهم مسلمون . وماذا تري فى كثير من الأمراء وشيوخ المسلمين يجيئون اليهم ويسومونهم كما يسام المتاع ثم يسوقونهم الي بيوتهم إما للخدمة وإما للافتراش وماذا ترى في الذرية التى ينتجها افتراش ابتنى على هذا الاسترقاق الفاسد . ان الدين لبرىء مما جنى عليه أولئك الطغاة الجهلة وطاهر مما ألصقوه به من ذلك

الدنس والرجس قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ماشاءت أن تسول فافتاتوا على الله ونسبوا اليه مانسبوا متقولين عليه وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق بتكذيبهم وتأنيبهم

(واعلم) أن هناك نوعا من الاسترقاق فشا فى المسلمين أيضا وهو لا يبيحه الشرع أيضا ذلك أن بعض أمم آسيا كالقوقاز وغيرهم قد يحدو بهم الفقر المدقع إلى جلب بناتهم بأيديهم الى أسواق بعض المدن الاسلامية وهن صغار جداً ليبيعوهن الى الأمراء والمثرين من الرجال ولقد يكون منهن المراهقات والنساء حتي اذا صارت احداهن فى ملك أحد استباح منها واتخذها فراشاً يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة وما يخدع الا نفسه من حيث لا يشعر فيظل طول حياته مستبيحا ما حرمه الاسلام ويدخل فى دينه ما أملته عليه وساوس الأوهام.

هذا . ولنعد بك الى مايتعلق بالرقيق فى الاسلام فنقول :

(٢) — كل من أسلم من الأسري عصم نفسه وماله

(٣) — مجرد دخول العدو المحارب دار الاسلام أمان له من السبى عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل.

(٤) — للرقيق فى الاسلام أن يتزوج بنت سيده فينقلب بذلك سيد البيت

أين هذا مما سبق لنا نقله من قوانين أوربا فى القرن الثالث عشر من تحريم التزاوج بين الارقاء وكذا بينهم وبين الأحرار وأنه يجب قتل المرأة التى يتزوجها عبد كما يجب احراقه حيا ؟

(٥) — جاء الاسلام فوضع من الأصول والنواميس ما كاد يقضى على الاسترقاق لولا أن الامم العربية وغيرها كانت اذ ذاك على ما نعلم فى أمر الاسترقاق وبديهى أنه لايمكن أن يزيل النبي عليه السلام فى بضع سنين أمراً ألفته النفوس واستولى عليها ذلك الاستيلاء . لذلك كان النبي عليه السلام يرغب

الناس فى العتق كما جعل هناك أحوالا يلزم فيها السيد بالاعتاق . فمن ذلك

(١) — أخبار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه غير مرة بأن العتق من أجل العبادات وأقربها قبولا عند الله

(٢) — أنه جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث في بعض الايمان

(٣) — ان من مكاتبة العبد مستحبة بالاجماع وللامام أحمد فى رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده اليها على قدر قيمته أو أكثر وان للعبد الاستغلال ليحصل على مايدفعه لسيده من نجوم الكتابة وان على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء

(٤) — اذا امتنع المكاتب عن الاداء ومعه مابقى فالحنيفة تجبره على الاداء ، واذا لم يكن معه مال ولكنه قادر على الكسب فالمالكية تجبره على الكسب لأنه ليس له تعجيز نفسه مادام قادراً عليه

(٥) — يراعى فى عقد الكتابة حالة الرقيق فأقل وعد من السيد أو أقل احتمال للوعد بالتحرير يجعل التحرير ضروريا

(٦) — اتفق الأئمة على أنه لو كان فى يد انسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام فالقول قول المكذب مع يمينه أنه حر . فترى فى هذه الصورة أن قاعدة (البينة على المدعى واليمين على من أنكر) قد خولفت مراعاة لحالة الرقيق فلم يطلب الشرع من المدعي البينة أولا بل جعل القول للمنكر بيمينه ولايخفى مايدل عليه هذا من شدة حرص الشارع على تحرير الرقاب ما وجد لذلك سبيلا

(٧) — قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطى الحاكم للرقيق المكاتب مايستعين به على فك رقبته أو ان يشترى الحاكم العبيد المملوكين ويعتقهم

(٨) — أن من افترش أمة وأتى منها بأولاد فهى أم ولده لايجوز له أن

يبيعها ولكنها لاتتحرر تماما الا بعد موته

(٩) — استوصى النبي ﷺ بالارقاء خيراً فجعل حقوق العبد علي سيده كحقوق المترافقين والمتجاورين والمسافرين فلا يجوز للسيد أن يكلف رقيقه مالايطيق من العمل أو أن يدعوه بألقاب الازدراء والتحقير كما لايجوز للسادة أن يفرقوا بين أنفسهم وبين عبيدهم فى المأكل والملبس ونحوهما

٧ — المرأة فى نظر الاسلام

قبل التكلم على المرأة فى الاسلام نأتيك بشذرات تبين لك شأنها قبل ظهور ذلك الدين الحنيف فى الامم المختلفة ثم نردف ذلك ببيان ما منح الله المرأة فى الاسلام غير معولين في جميع ذلك الا على كتاب الله تعالى وسننه الصحيحة

كلنا يعلم ماكانت عليه أمة الفرس من الحضارة القديمة كما نعلم ما اشتهر به بعض ملوك فارس من العدل والفضل حتى ضربت بهم الأمثال أفأدلك على ما كانت المرأة تعامل به فيهم كان للرجل أن يتزوج من النساء من شاء من غير وقوف عند حد ولا تقييد بشرط ولاسؤال عن حق ولقد كان له أيضا أن يتخذ من الاخدان من شاء

فاذا اعتبرنا العرب الذين ظهر فيهم النبي ﷺ نجد حالة المرأة فيهم أبشع وأشنع فلقد كانت المرأة بين وثني العرب معتبرة سلعة محضة فاذا مات رجلها ورثت فيما يورث حتى كان للابن الوارث أن يفترش زوجة أبيه أو أمته كما كان له أن يهبها لمن شاء وأن يبيعها ممن شاء هذا عند وثني العرب

ولم تكن منزلة البنت اليهودية عند أبيها أرفع شأناً من ملك اليمين فلقد كان للأب أن يبيع ابنته قبل بلوغها كما كان لابنه الذكر أن يفعل ذلك

وكانت العرب وثنيهم ويهوديهم يتزوجون من النساء ولايقتصرون على عدد كما كان نكاح المتعة فاشياً فيهم حتى جاء الاسلام فأبطله على ما يأتى

كانت العرب تئد البنات إما من فاقة أو خشية عار يأتينه متي كبرن حتى قال

قائلهم دفن البنات من المكرمات

هكذا كان شأن المرأة بين أكثر قبائل العرب وغيرهم فلم تكن بين الفرس والرومان الشرقيين أهنأ بالا ولا أعز شأنا ولا أكثر حرمة منها بين العرب

ومن المعلوم أن أحسن القوانين مالايشتمل على التضييق ويلائم فريقا دون فريق وكذلك جاء القرآن الكريم والسنة السمحة بتلك النواميس التى تلائم بلا ريب أرقى الامم تحضراً وأصدقهم فكراً كما تلائم وتنطبق على الامم الذين لايزالون فى مهد الفطرة الاولى

ساوى الاسلام بين الذكران والأناث في جميع التكاليف الشرعية الافى أحوال خاصة قليلة كما ساوى بين الصنفين فى الحقوق المدنية وجعل لكل أن يتقاضى حقه من الآخر وأن يبيع ويشترى ويعقد ماشاء من العقود مادام عاقلا رشيداً

جاء بذلك الاسلام منذ ثلاثة عشر قرنا فتمتعت النساء بما ملكت أيمانهن من غير توقف على اذن زوج أو تقرير مسيطر مع أن معظم أمم أوروبا لم يطلقوا العنان للمرأة أن تتصرف فيما ملكت يدها اللهم الا ما أدخلته الحكومة الحكومة الانجليزية وقليل غيرها من أهل أوروبا منذ ثلاثين سنة من القوانين التى خولت للمرأة فيها شيئا من ذلك ولم يكن هذا معروفا فيهم من قبل

جاء الاسلام وقد كانت المرأة لاتكاد تمتاز عن الحيوانات العجم لاتقرأ ولا تفهم ولا تستفتى فى أمر ولا تقضى ولا تأمر ولا تنهي فهلا علمت مافعل الاسلام جاء النبى صلى الله عليه وسلم فكان فى بيته أحسن أسوة للمسلمين وما زال تنزل عليه الآيات فى شأن النساء حتي أصبحن ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف

أوجب الله تعالى تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلمن الناس ذكورهم وأناثهم (واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) فكان الرجل (وكان ماكان في الجاهلية) يأتى اليهن ويستفتيهن ويتلقي ما

يلقينه من أحكام الله ومكارم الاخلاق و بذلك أخذت عقول الرجال ترجع الى رشدها وتعلم أن لادخل لاختلاف الصنف أو الشعوب أو الأمم فى التفاضل فقد جعل الله التفاضل بين الكائنات تابعاً لما فيها من الفضل والمزايا والخصيصات (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) لم يقل الله أن الرجال قوامون على النساء مسيطرون عليهن بمقتضى الفطرة البشرية أو لأن عقولهم تخالف عقولهن ولكن الله جعل انفاق الرجل على المرأة من علل الفضل كما جعل من العلل أيضا ماقد يمنح الله القوامين على النساء من المزايا ولولا ذلك ما كان للرجل قوامة على المرأة من ذا الذى يستطيع أن يعتقد فضل بدوى عقله أخلى من أرض البادية على المرأة التى وصلت الليالى بالأيام فى طلب العلم حتى تثقف عقلها وتهذبت نفسها كلا ان الله لم يجعل التفاضل الا حيث يكون ما منح من الفضل كما قال (هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) وقال (هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور)

أباح الشرع للمرأة مادامت من أهل التصرف فى مالها أن تتزوج بنفسها وأن توكل غيرها فى زواجها ولا اعتراض عليها الا أن تضع المرأة نفسها فى غير كفء فهناك يعترض الولى عليها ويطلب من القاضى فسخ زواجها

جعل الشارع للمرأة أن تشترط فى صلب عقدها أن يكون أمرها بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت

ففى الدر « أن تزوجها على أن أمرها بيدها صح » قال ابن عابدين هذا مقيد بما اذا ابتدأت المرأة فقالت زوجتك نفسى على أن أمري بيدى فقال الزوج قبلت » اه بتصرف

(١) ولقد يعترض على قسمة المواريث من لم يتدبر اذا قضى للمرأة أن يكون لها نصف نصيب الرجل فيتوهم أن فى هذا اجحافاً بحقوقها ولكننا عند التأمل نجدها قد زاد حظها وجل نصيبها وذلك أن المرأة كما سيأتى عالة على الرجل فى معظم أدوار حياتها فيجب عليه شرعاً أن ينفق عليها ويأتي اليها بمطالبها كما يقتضيه عرف القبيل الذى هما فيه فاذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف . فتقدير الشارع لها حظا من المواريث غاية فى الرأفة بها ورعا جانبها والعناية بشأنها

فأين حجر الاسلام على المرأة وأين التضييق عليها مع هذه المسامحة

٨ — فصل فى تعدد الزوجات فى الاسلام

تقدم لنا التلميح الى ماحشا به الاوربيون كتبهم من الطعن فى الاسلام متمسكين بما أباحته الشريعة من إباحة تزوج أكثر من واحدة ولو كانوا يعرفون العربية ويفقهون كتاب الله وقواعده مااستطاعوا أن يلصقوا بالاسلام ماليس من شيمه

ان النقائص التى مثلت بالاسلام فى أعين غير أهله انما نشأت من اعتبار أعمال الخلف الطالح ميزاناً لتقدر بها قوانين الشرع ونواميسه فمن قائل بسد باب الاجتهاد ومن امام أو خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية أن ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب اليه ماليس من دينه فى شيء ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعا الى الزلفى منه . ومن أحمق أرعن لم يرض من اليسر مارضى الله لعباده فشط بالناس واعتسف بهم حتى ضاقت نفوسهم وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الانسان مثنى وثلاث ورباع ولكن الله تعالى

(١) السطور الموضوع تحتها خطوط لم تكن فى الطبعة الاولى وقد زادها المؤلف بخطه فى النسخة التى نقلنا عنها

يقول (فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة) فتراه قد شرط إباحة تعدد الزوجات بالعدل كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سبباً كافياً فى تحريم التعدد ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين النساء ولو حرصوا فما بالنا مع جميع ذلك نرى كثيراً من المسلمين يفقهون بعض آيات الكتاب دون بعض عجباً أغفل الناس كثيراً من القواعد الاسلامية التى يجب تقدير الاعمال بها وزنة التصرفات الانسانية بميزانها

واعلم أن المعتزلة وهم كما تعلم من المسلمين يقولون بعدم جواز أن يتزوج الرجل ثانية مادامت الاولى فى عصمته كما ذكره الأمير على فى كتابه « سر الاسلام » وما ذلك إلا لأنهم تتبعوا مايجلبه ذلك من المفاسد والمضارة وعرفوا أن من أصول الشريعة المحمدية إعطاء الوسائل ماللغايات من الاحكام فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لايستحسنها عقل ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتاً وذلك لأنه أرسل رسوله للناس كافة بشيرا ونذيراً ولا ريب أن ثمة أحوالا يحسن أو يجب فيها تعدد الزوجات ولا يمكن لأحد الفرار من الاعتراف بوجود كثير من الأحوال التى تقتضى ذلك ولأضرب لك مثلا رجلا تزوج إمرأة فأصابها مرض مزمن ورجلا تزوج امرأته فكان يستمر معها الحيض الى خمسة عشر يوما وزجلا تكره امرأته المباشرة فى كثير من أشهر الحمل وهلم جرا فأمثال هؤلاء الرجال اماأن يصبروا مع العنت والشقة وقليل الصابرون وأما أن يأتوا الفاحشة وأولئك هم الخاطئون

اننى لأرى كما يري كل عاقل أن تعدد الزوجات بالغة مثالبه ما بلغت أسلم عاقبة من إتيان الفاحشة ومن الشواهد التى يحسن ذكرها مانقله الامير على فى كتابه (سر الاسلام) عن السيدة غوردون الانجليزية أنها تأملت فى أحوال كثير من البلاد الاسلامية أو الشرقية اجمالا فرأت أن تعدد الزوجات أكثر ما يكون فى البقاع التى تكثر فيها الفاقة وتقل فيها المرافق فيصعب على النساء

الاعتماد على أنفسهن فى تحصيل المرافق والأخذ بأسباب العيش وقد رأت تلك السيدة أن هذه احدى الضرورات التى يخول معها التعدد

جمعتنى المصادفات برجل أسبانى قابلته في لوندره فمكثنا نتحادث فى كثير من مسائل الدين الاسلامى فمما خضنا فيه أمر تعدد الزوجات فقال انه يتمنى لوكان مسلما فيتزوج امرأة غير زوجته فسألته في ذلك فقال ان امرأتى قد أصيبت بجنون وها هي تلك تعالج فى بيمارستان « مجريط » ولها على ذلك سنون كثيرة ولقد اضطرني الأمر أن أتخذ بعض الأخدان لعدم استطاعتى التزوج بأخري فلو أن هذا كان مباحا لنا لكان لى عقب شرعى يرثنى فيما لدى من المال الكثير ويكون لى قرة عين وخير رفيق أطمئن به وأسكن اليه

ثم تقابلت فى اكسفورد مع دكتور فاضل وقد جرت عادة الانجليز أنهم متى رأوا غريباً سألوه فى جميع مايلج فى صدورهم . سألنى ذلك الدكتور عن وجه تعدد الزوجات فى الاسلام وذكر أنه يستقبحه فما زلت به حتي كاد يذعن لما أبديت له من الأسباب ثم قال اننى أكاد أرى وجه ماتقوله ولكن لى كلمة فى نبيكم صلى الله عليه وسلم فقلت ماهى قال أن منزلة النبوة التى ادعاها كان يجب أن تحول بينه وبين إكثاره من عدد الزوجات فعند ذلك قلت له اننى ياسيدى كثير التجارب وقد رأيت فى الانجليز وفي المصريين والأتراك والفرنسيس وغيرهم من الأمم من لايقنع بواحدة ولا يعكف على ماأحل الله مادام يملك شيئاً من المال وهذا أيها السيد أحد الاسباب فى قلة عدد ذرارى الأغنياء والمثرين وكثرة عيال الفقراء والمعوزين ولو ملكت أيديهم فضلا من المال والسعة لما قنعوا بما أوتوا أفتنكر بعد ذلك أن تعدد الزوجات أدعي للعفة والحصانة وأضمن لنمو بنى الانسان . فما كان من ذلك الفاضل إلا أن قال ان أن معظم ماقلته حق لامراء فيه ثم ذكرت له أسباب إكثار النبى من النساء مما سنأتى عليه بعد وانما لم أبدأ بذكر تلك الاسباب لاننى قصدت الزامه من

من أول الامر بضرورة تعدد الزوجات في بعض الاوقات أخذا مما عليه الناس فى أحوالهم الدنيوية التى لايسعه انكار شىء منها فلما أضعفت من قوة تعصبه وفلت من حدته أخذت أسرد له الاسباب التى لم يجد لانكار شىء منها سبيلا

والخلاصة ان اعتبار كون تعدد الزوجات مصدراً لكثير من المفاسد انما هو أمر اضافى ولايمكن اتخاذه حكما عاما فان ذلك يختلف باختلاف الامم والأزمنة والأمكنة والاحوال . أنظر الى ما كان معروفا فى بدء النصرانية من استقباح الزواج رأسا وتقبيح المتزوجين وتفضيل الرهبانية

ولقد قضت الرهبانية فى الاعصر الخالية أن يقبر فى الديور كثير من العقول الذكية التى لم يجن منها عالم الحياة الدنيا أقل فائدة أما منشأ ذلك فقد كان اما تقليد المسيح عليه السلام أو بعض أسباب أخرى كالتفرغ المطلق الى عبادة الحق تعالى ولا يزال قسوس الكاثوليك يذهبون ذلك المذهب ويزدرون المتزوج لما دنس نفسه بميله الى الشهوات الحيوانية قالوا ان المسيح عليه السلام روح الله فكان أقدر الناس على غلبة شهواته وقارنوا بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم القائل (لارهبانية فى الاسلام) ثم انتهى بهم القياس الى الحط من كرامة الاخير وقالوا شتان بين من غلب نفسه وبين من استرسل مع هواها فأرضاها ولا يخفى بطلان هذه القضية فانه لاتنافى بين الصلاح والزواج على أن تقليد المسيح فى رهبانيته لايبلغ غايته إلا بخراب البيوت وتلاشى الامم وانقراض النوع الانسانى ولايخفى أن هذا لاينافى مقتضيات العمران . ومطالب نظام الاكوان

لم يكن محمد ﷺ فيما أتاه بدعا من الرسل فذانك موسى وداود عليهما السلام تزوجا كثيراً من النساء . وهما ذانك الرسولان اللذان لا يسع نصرانيا ولا يهودياً انكار نبوتهما أو احتقار ما أتيا به من الصحف السماوية الاولى

هذا ونذكر لك هنا فى زوجات المصطفى ﷺ ما فيه غناء ان شاء الله تعالى فنقول . اعلم أن أكثر المسلمين اتفقوا على أن للنبى ﷺ من الخصائص مالم

يكن لغيره من أمته وذكروا أشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذى أباحه لغيره بشروطه ولايخفى أن مثل هذا لا يكفى لاقناع غير المسلمين الذين نندوا بالنبى عليه الصلاة والسلام ولم يجدوا فى كتب المسلمين ماينهض حجة لهم اللهم الاقليلا ممن أيده الله بروح منه فنريد أن نذكر لك من أسباب ذلك مافيه مقنع ان شاء الله

فاعلم أن أول أزواج النبى ﷺ خديجة تزوجها قبل البعثة وهو ابن خمسة وعشرين على أنها كانت بنت أربعين سنة

قضى النبى ﷺ شبيبته وطائفة من كهولته ولا زوج له الا خديجة ماتت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات بعد أن مكثت مع النبى ﷺ خمسا وعشرين سنة ولدت له فيها جميع أولاده ماعدا ابراهيم فلم يتزوج النبى قبل بعثته من شاء وهو فى ريعان شبابه وقد كانت العرب على ماعلمت يكثرون من الزوجات حتى ان منهم من كان تحته العشرون في وقت واحد فلو كان هناك سلطان للهو على قلب المصطفى ﷺ لاتخذ من الزوجات من شاء وهو فى مقتبل شبابه واستكمال قواه الطبيعية لاشرع يحول بينه وبين بغيته ولا عادة تمنعه مراعاتها من قضاء مآربه لاسيما وقد كان مرغوبا فيه بين الناس لما اشتهر من مكارم أخلاقه وجميل خصاله

بعد أن ماتت خديجة ببضعة أشهر تزوج النبى ﷺ سودة وكانت أيما مات عنها زوجه عقب رجوعه من الهجرة الثانية الى الحبشة وقد كانت أسلمت رضى الله عنها وخالفت بنى عمها وأقاربها فما أجمل ماعمله النبى من الرحمة بها وتعويضها خيراً مما فقدت فقد مات عنها زوجها ولا حامى لها دون أقاربها الذين أسلمت رغم أنفهم فكان تزوج النبى بها حماية لها أن تصل اليها يد الاذى كما كان ذلك أكبر سلوان لها على فقد زوجها

مات أبو طالب لشهر من موت خديجة ففقد النبى بموته رجلا كان يناضل عنه ويدفع عنه أعداءه ما استطاع فأخذ الأمر اذ ذاك يشتد على النبى ﷺ

فرأى أن يوثق الرباط بينه وبين قريش فعقد على عائشة وهى اذ ذاك بنت سبع فان أباها الصديق رضى الله عنه كان صدراً وجيها فى قريش واسع المال عزيز الجانب يدلك علي ذلك مسارعة النبي ﷺ بالعقد عليها مع أنها قاصر وأنه لم يبن بها الا بعد ذلك بنحو سنتين فلم تكن وقت ذاك مطمعا لقضاء شيء من المآرب الشهوية حتى يطمح اليها نظر النبى أو غيره

ومن هذا القبيل تزوجه ﷺ بأم حبيبة بنت أبى سفيان وكانت ببلاد الحبشة فى الهجرة الثانية مات عنها زوجها هناك وما هو الا أن انقضت عدتها حتى أبلغها النجاشى أنه قد كتب اليه رسول الله ﷺ ليزوجه اياها

كل من اطلع على التاريخ يعلم مقدار ما كان بين النبى وبين بنى أمية من العداء كما يعلم أنه قد كان أبو سفيان ألد بنى أمية عداوة لرسول الله وللمسلمين فانه لم يدخل فى الاسلام إلا بعد أن نال المسلمين ما نالهم من أذاه الشديد فتزوج النبى عليه السلام أم حبيبة ليكون بينه وبين ألد أعدائه لحمة نسب تكون له فى الجملة وسيلة الى حملهم على تقليل الأذى عنه كما أنه صلى ﷺ اختارها لنفسه لأنها خرجت من ديارها فارة بدينها ففي عدم حمايتها ووقايتها وقد مات زوجها تعريض لها الى مقاساة المصاعب والأهوال وانما اختارها النبى لنفسه لمكانتها فى قومها فلو أنها زوجت بغير كفء لاتخذ بنوا أمية ذلك شبهة يوغرون بها صدور بيوتاتهم ويحرشونهم بالمسلمين على قلتهم وضعفهم

كانت الأسرى من النساء يتخذن إماء لا يسوى بينهن وبين الحرائر فى شيء على أنهن قلما أعتقن فأراد النبى أن يعلم المسلمين بالعمل ما ينبغى أن يصنعوا بما فى أيديهم من الأسرى من التحرير والكرامة وأن يجعلن سيدات البيوت فمن ذلك تزوجه بجويرية . قالت عائشة رضى الله عنها أصاب رسول الله ﷺ نساء بنى المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فاعطى الفرس سهمين والرجل سهما فوقعت جويرية بنت الحرث بن أبي ضرار فى سهم ثابت بن قيس،

فجاءت الى الرسول فقالت يارسول الله أنا جويرية بنت الحرث سيد قومه وقد أصابني من الامر ماقد علمت وقد كاتبني ثابت على تسع أواق فأعني على فكاكي فقال أوخير من ذلك فقالت ماهو فقال أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك فقالت نعم يارسول الله فقال رسول الله قد فعلت وخرج الخبر الى الناس فقالوا أصهار رسول الله يسترقون فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي بني المصطلق فبلغ عتقهم مائة بيت بتزوجه عليه السلام إياها . فانظر الى ماقصد الرسول عليه السلام من تزوجه بها

ومن ذلك أيضا تزوجه بصفية بنت حيي وكانت من أشرف بيوت اليهود ثم صارت سبياً بعد وقعة خيبر وكانت مما اصطفاه ﷺ من الغنائم

وعن ابراهيم بن جعفر عن أبيه قال لما دخلت صفية على النبي ﷺ قال لها لم يزل أبوك من أشد اليهود لى عداوة حتي قتله الله فقالت يارسول الله ان الله يقول في كتابه ولاتزر وازرة وزر أخرى فقال لها رسول الله اختاري فان اخترت الاسلام أمسكتك لنفسي وان اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك فقالت يارسول الله لقد هويت الاسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت الي رحلك ومالي في اليهودية أرب ومالي فيها والد ولا أخ وخيرتني الكفر والاسلام فالله ورسوله أحب الى من العتق وأن أرجع الى قومي قال فأمسكها رسول الله لنفسه وقدرضيته بعلامع أنه كان لها أن ترجع الى أهلها بعد العتق

هذا واعلم ان أمر الثأر في الجاهلية معروف وقد حاول كثير من الأنبياء كموسى والسيد المسيح وغيرهما حقن الدماء ونسخ تلك العادة القبيحة فلم يفلحوا لما ان ذلك كان أمرا راسخا فى نفوس العرب أشربته قلوبهم فلم ينجع فيهم دواء حتى أتي النبي فجعل من عقود أنكحته ماربط كثيراً من القبائل بعضها الى بعض فبذا قرب مابينها وأزال كثيرا من أحقادها وأطفأ سورة مافي

صدورها من الغل والضغائن حتى قلت في أيامه ﷺ الغارات وكاد يتناسى أمر الثارات

هذا وتتميما لهذا الموضوع نريد أن نذكر كلمة فى تزويج النبي ﷺ بزينب امرأة مولاه زيد

قال الاستاذ الحكيم (١) ان زينب كانت بنت عمة النبي ﷺ ربيت تحت نظره وشملها من عنايته مايشمل البنت من والدها لأول الأمر حتى أنه اختارها لمولاه زوجة مع إبائها وإباء أخيها وعد هذا عصيانا ولا زال كذلك حتى نزل في شأنها آية (وما كان لمؤمن ولامؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً)

ولو كان للجمال سلطان على قلبه ﷺ لكان أقوي سلطان عليه جمال البكر فى روائه ونضرة جدته وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ولايخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة فكيف يمتد نظره اليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم الله عليه بالعتق والحرية . لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر ان تعظم شهوة الغريب وولعه بالقريب الى أن تبلغ حد العتق خصوصاً اذا كان عشيره منذ صغره بل المألوف زهادة الاقرباء بعضهم فى بعض متى تعاشروا فكيف نظن أو نتوهم أن النبي الذى يقول الله له (ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا) يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر الله فى ذلك أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة فى بنت عمته بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده

ان النبي لم يبال باباء زينب ورغبتها عن زيد وقد كان لايخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شؤون المعيشة فما كان له وهو سيد المصلحين أن يرغم امرأة على الاقتران برجل وهى لاترضاه مع ما فى

(١) انظر تفسير سورة الفاتحة

ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين لولا أن النبي يجد من نفسه أن هذا القران مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم إلهي ذلك أن التصاق الادعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمراً تدين به العرب فكانوا يعطون الدعي جميع حقوق الابن ويجرون عليه وله جميع الاحكام التي يعتبرونها للابن حتى من الميراث وحرمة النسب فأراد الله محو ذلك بالاسلام حتى لايعرف من النسب إلا الصريح (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) ثم قال (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم) فبين الله أن ليس التبني إلا حق المولى والأخ في الدين

وكان من عادة المصطفى أن يبادر في كثير من شرائعه الى اقامتها بنفسه ليكون قدوة حسنة ومثالا صالحاً تحاكيه النفوس وتحتذيه الهمم وحتى يخف وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة وعلى هذه السنة جاء تزوجه بزينب إذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الامر بنفسه في أحد عتقائه لتسقط العادة بالفعل كما ألغى حكمها بالقول الفصل فبعد أن صارت زينب الى زيد لم يلن آباؤها الاول ولم يسلس قيادها بل شمخت بأنفها وذهبت تؤذي زوجها وتفخر عليه بنسبها وبأنها أكرم منه عرقاً وأصرح منه حرية لانه لم يجر عليها رق كما جرى عليه فشكا ذلك الى النبي غير مرة وهو يقول له (أمسك عليك زوجك واتق الله) الا أنه لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها ثم تزوجها النبي ليمزق من حجاب تلك العادة كما قال تعالى (لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا) وأكد ذلك بالتصريح في نفي الشبهة بقوله (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وقد قالت العرب اذ ذاك تزوج محمد حليلة ابنه

قال أبو بكر بن العربي فأما قولهم أن النبي ﷺ رآها فوقعت في قلبه فباطل فانه كان معها في كل وقت وموضع ولم يكن ثمة حجاب فكيف تنشأ معه وينشأ

معها ويلحظها فى كل ساعة ولاتقع فى قلبه الا اذا كان لهازوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله فكيف يتجدد هوى لم يكن اه ملخصا

وهكذا كانت سنة النبى ﷺ فى جميع تزوجاته فلم يكن النبى ﷺ في هذه السنوات التى أكثر فيها من الزوجات أخضع لشهوته منه وكان فتيا لم يكلف بشىء من أعباء الرسالة ولم ينزل به من أذى قريش وعدائهم ما كان يضعف عن احتماله لولا أن جعله الله من الصابرين هذا كله على فرض أن أنكحة النبى ﷺ كانت كلها و بعضها بعد نزول آية (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) أما اذا كانت قبل ذلك كما حققه الامير على فى كتابه سر الاسلام فلا حاجة الى التماس شىء من تلك الاسباب قال الأمير على أن ميمونة بنت الحارث كانت آخر من تزوج النبى ﷺ وكان ذلك فى السنة السابعة للهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد ثم ان الله تعالى بعد ذلك لم يبح للنبى أن يتزوج على من عنده كما فرض عليه ألا يتبدل بهن أزواجا أخريات فقال (لايحل لك النساء من بعد ولاأن تبدل بهن من أزواج ولوأعجبك حسنهن الا ماملكت يمينك) أى الامن سبق لك التزوج بهن

وهنا مسألة أولع بايرادها كثير من أحداث هذا الزمان قالوا لم جاز تعدد الزوجات على شرط دون تعدد الازواج

فاعلم أن ذلك يفضى بداهة الى اختلاط الانساب فيقع اللبس في نسبة النسل ولا يخفى أن ذلك يفضى الى تعطيل كثير من الأحكام الدنيوية كالنفقة والارث وغيرهما

وهنا مسئلة أخري وهو أنه لم جاز للمسلم أن يتزوج كتابية بخلاف العكس وجوابها أن الاسلام جعل لكل كتابى أن يبقى على دينه فالكتابية فى يد المسلم آمنة على دينها بخلاف العكس فان المسلمة فى يد الكتابى لاتأمن أن تفتتن فى دينها فانه لاوازع له من دينه يحول بينه وبين فتنة غيره لاسيما من له

عليه سلطان كزوجته والناظر لما يفعل دعاة النصرانية فى العصر الحاضر يرى جليا وجه ماقلناه ومن هنا يعلم ان المرأة لم تبخس شيئا مما منحه الرجل

٩ — الطــلاق

مما عد وصمة فى الاسلام إباحة الطلاق ولذا ينبغى لنا أن نأتى ببيان ما سيكشف لك ان شاء الله وجه الصواب فيه فنقول

اعلم أن الطلاق أباحه الله تعالى للمسلمين لانه قد تدعو اليه الضرورة أما حيث لاضرورة فسماه النبى صلى الله عليه وسلم أبغض الحلال الى الله كما أن المسلمين اتفقوا على النهى عنه عند استقامة الزوجين فمنهم من قال أنه نهى كراهة ومنهم من قال نهى تحريم وقد رأت الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب ويؤيد ذلك أنه اضرار وقد نهي النبى صلى الله عليه وسلم عنه فى قوله لاضرر ولاضرار ولقد كره النبى صلى الله عليه وسلم أن يطلق زيد زوجته زينب مع أنها كانت تكثر من ايذائه والاستخفاف به حسبما تقدم لنا آنفا أما الطلاق بسبب فلم يرفضه أحد ولكن اختلفوا فى بيان الأسباب قال ابن عابدين وأما الطلاق فالاصل فيه الحظر أى الحرمة . والاباحة للحاجة الى الخلاص فاذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة الى الخلاص بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران النعمة واخلاص الايذاء بها وبأهلها وأولادها ولذا قالوا أن سببه الحاجة الى الخلاص عند تباين الاخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم اقامة حدود الله تعالى فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ولذا قال تعالى (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى لا تطلبوا الفراق اه

أما غير المسلمين فمنهم من لم يجوز الطلاق أصلا الا للزنا كالأمة الانكليزية فأيهما اقترفه كان للآخر أن يرفع الامر الى المحكمة ليفصل القاضى بينهما .أما أهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة ثم وجدوا أن هناك أسبابا أخرى يتحتم معها الطلاق ولكن لافرقة عندهم الا بقضاء قاض ولابد

لجميعهم أن يرجعوا الى ماقرره الاسلام من الأسباب

نعم أن الشريعة الاسلامية لم توقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم وقصار النظر من النــاس يرون أن الأول أعدل لأن فيه محاسبة الرجل والمرأة على ما يعملان فلم يخل السبيل للرجـل يفعل مايريد ولكن دين الاسلام أقوى ركنا وأحكم وضعاً وأبعد مرمى فلم يفعل ذلك الا لحكمة صالحة ذلك أن فى تطبيق الطلاق على حكم القاضى بثبوب الزنا أقبح تشهير للمقترف وأشنع سبة تنفر عن مرتكبه القلوب وتشوه سمعته فى العالم لاسيما فى مثل هذا العصر الذى تطوف جرائده فى الشوارع والأزقة والدكاكين والبيوت والمصانع وتنتقل من أرض الى أخري ومن يد الى غيرها مشحونة بتفاصيل مايعرض على المحاكم من هذه القضايا آتية علي ماقل منها وماجل فمن ذا الذي يقبل على تزوج رجل أو امرأة قطعت سمعتها الشنعاء المشارق والمغارب . يقضى ذلك الرجل وتلك المرأة مابقى من العمر مرذولين مجفوين ولو استقاما بعد ذلك وأصلحا أما الاسلام فانه جعل للقاضى فسخ الانكحة فى أمور لا بأس فى اعلانها بل ان اعلانها هو المصلحة الكبرى من ذلك الجب والعنة والجنون والبرص والجذام والاعسار بالنفقة والكسوة والمسكن مما تراه مبسوطا فى كتب الفقه متى رجعت اليها . أما غير هذه الأسباب مما قد يزول أولا كبير خطر فى بقائه فللرجل أن يطلق من غير أن يكلف بيانا فيه فما أجمل ستار الشرع الذي يخفى كثيراً من النقائص رجاء أن تزول من قبل ان يظهر عليها أحد وما أرأفه بالانسان الذي قد يهفو ثم يبدوا له فينيب

هذا ، واعلم أن الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق أصلا وغاية ماورد فى الانجيل أن من طلق امرأته وتزوج أخرى فهو زان وهذا لاتعرض فيه لحكم الطلاق أصلا

واعلم أن الطلاق فى الاسلام كما هو معلوم حق من حقوق الزوج (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)

ولكن الاسلام مع ذلك قد جعل للمرأة كما تقدم أن يشترط فى العقد أن تملك ذلك كما عليه الحنفية فاذا لم تشترط ذلك هى أو وليها فقد أقرت الرجل على الحق الذى خوله له الشرع ولكن مع ذلك لايجوز له أن يوقعه الاحيث يراه الشرع حسنا صالحا كما تقدم

هذا ولم يعتبر الاسلام زنا الرجل من الاسباب التى تطلب بها المرأة فسخ الزواج ولا العكس الا ممن قذف امرأته أورماها بالزنا أو نفى حملها ولا بينة له فان له أن يلاعن زوجته وتلاعنه ثم يفرق القاضى بينهما والسبب فى أن هذه التفرقة لم تبن على مجرد الزنا من حيث هو زنا بل من حيث مايستتبعه من الأحكام الدنيوية المتعلقة بما عسى أن يكون من الاولاد ولذا كان رمى المرأة للرجل بالزنا لايصلح علة للفرقة بل أن لهذا حكما آخر ليس هذا موضوع الكلام فيه

فما تقدم لنا هنا نرى أن الاسلام لم يجر فى جميع ماسردناه عليك هنا الاعلى مقتضى أصل الفطرة فرفع شأن النساء حتى ساوين الرجال فيما يمكن من المزايا والحقوق ثم لم يبخسهن شيئا كما أباح الرجال ما أباح من تعدد الزوجات والطلاق مقرونا بما وضعه وقرره من الشروط ولكن - لو أنصف الناس لاستراح القاضى - حارب المسلمون دينهم وماشرط لهم فكان أكثرهم اباحيين لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كان يفعلون

كان الطلاق قبل الاسلام منتشراً فى جميع أمم العرب يهوديها ومسيحيها ووثنيها وكذا بين الرومانيين فلقد اعتبر قانون (الموائد الاثنتى عشرة) الطلاق جائزا أما ماتشدق به بعض المتشيعين لهم من أنهم لم يعملوا بهذا القانون الابعد خمسة قرون مضت من عهد تأسيس مدينتهم (رومه) فلم يكن سببه مايدعون من بغضهم للطلاق ولكن لان الرجل فى تلك القرون كان له أن يقتل امرأته عقابا لها على بعض الجرائم كالسكر فكانت عند الرجل كالرقيق كما أنها اذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبر ذلك منها قحة ونشوزا يخول له عقوبتها

نعم أن الرومانيين فى أخريات أمرهم أصلحوا كثيراً من شأن المرأة وأنصفوها اذ ساووا بينها و بين الرجال في كثير من الاشياء

يقول الأمير على أن المعتزلة لايجوزون وقوع الطلاق الا بحكم القاضى الشرعي العادل فلا بد أن يمتحن الأسباب بلا تحيز فيوقع الطلاق أو يرفضه حسبما يراه صالحا . ومن هنا يظهر أن من طوائف الاسلام من يعقلون وقوع الطلاق بحكم القاضى فلا يصح عندهم وقوع الطلاق من الزوج الابعد محاسبته وامتحان أسباب مايريده من الفرقة

واعلم أن من أكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل أن يسترجع امرأته فى الطلقة الاولى والثانيـة لانه ربما كان التطليق لسورة غضب ثارت فلم يملك نفسه حتى يتروى ويتدبر فرجا الشرع أن يرجع اليـه رشده فيتدارك مافرط منه حتى اذا طلق الثالثة وجبت عقوبته بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من أنه سفيه الرأي ضعيف العزم ولايخفى مافى هذا الشرط من السر الحكيم واذا أردت زيادة بيان فتدبر قوله تعالى (وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما) أيقول الله أن يريدا طلاقا يفرق الله بينهما أم ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما

وتفهم قوله تعالى (خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فقال لتسكنوا اليها ولم يقل لتطلقوها وقال (وجعل بينكم مودة ورحمة) ولم يقل بغضا وقسوة وقوله تعالى (امسك عليك زوجك) أمر النبى عليه السلام زيداً بأن يمسك زوجته فلا يطلقها مع أنها كما تقدم كانت تكثر من مضارته واساءته وقال تعالى (فان أطعنكم فلاتبغوا عليهن سبيلا) أى فلا تطلقوهن ومن هنا استنتج أن الاصل فى الطلاق التحريم الا لسبب كما تقدم لنا

١٠ ـــ خاتمة

ونريد أن نأتيك هنا بملخص ما كتبه الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده مما يناسب هذا المقام ليكون له أحسن ختام

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر ان لكل نفس ماكسبت وعليها ما اكتسبت «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» «وأن ليس للانسان الا ماسعى» وأباح لكل أحد أن يتناول من من الطيبات ماشاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضاراً لنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ماتعدى ضرره الى غيره . وحدد له في ذلك الحدود العامة بماينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعى حتي لم يعد لها عقبة تتعثر بها اللهم الاحقاً محترما تصطدم به أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ونسفت ماكان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هياكل الوهم « نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة»

علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام أعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فوصفهم بالتميز بين مايقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا مالم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستو كانوا

فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرؤوسيهم يخبرونهم بما يشاؤون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون

صرف القلوب على التعلق بما كان عليه الآباء وماتوارثه عنهم الأبناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم « بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا » (انا وجدنا آبائنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون)

(تم كتاب الاسلام دين الفطرة)

فهرست كتاب الاسلام دين الفطرة

صحيفة